الأَدبُ العَرِبَى

" فى ظِلال العَصْر العباسي الأوَّل"

الدكتور

عبد الهادى عبد النبى على أبو على

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله النبى الأمى الهاشمى الأمين ، وعلى آله الأطهار الطيبين ، وأصحابه الأخيار الغر الميامين،والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وَبَعْدُ

فهـــذه الدراســـة تتناول حالة الأدب شعراً ونثراً فى ظلال العصر العباسى الأول.وقد مهدت لها بالحديث الموجز عن نسب العباسيين وقيام دولـــتهم.ثم تحدثت عن الأحوال : السياسية والاجتماعية والعلمية فى هذا العصـــر؛ لأن الأدب ظـــل الحـــياة وانعكاس لها وثمرة ناضجة من ثمار غرســـها علـــى اخـــتلاف نواحيها، ثم خصصت الشعر فى هذا العصر وعوامـــل نهوضه وأغراضه وخصائصه بحديث طويل ومفصل مستخدماً الـــنماذج الشعرية التى توصل لكل فكرة وموضوع ، ثم تحدثت عن أهم المذاهب الدينية والسياسية التى أثرت فى الشعر بل فى الأدب العباسى ، ثـــم تعرضـــت بالحديث بعد ذلك عن النثر من : كتابة وخطابة فى هذا العصـــر مـــبرزاً أهـــم الأســـباب الـــتى أثـــرت فى نهوض النثر وأهم الموضوعات والخصائص الفنية التى تميزت بها كل من الكتابة والخطابة حينئذ .

وقـــد تناولت ذلك بأسلوب سهل وعرض مبسط ميسور حتى يسهل الفهـــم وتتحقق الغاية المرجوة من هذه الدراسة ، وأسأل الله تعالى السداد والتوفيق فإنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور

عبد الهادى عبد النبى على

***

نسب العباسيين :

ينتسب العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سادات قريش وبنى هاشم وعقلائهم ، وقد ولد العباس قبل حادث الفيل بثلاث سنوات ، لذا فهو أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكبره بثلاث سنين.

والعباس هو الذى تولى عقد المعاهدة مع الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم – مع انه لم يدخل الإسلام حينئذ – قبل هجرته إليهم، وكان العباس فى عداد الأسرى الذين أسرهم المسلمون فى غزوة بدر هو وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثم فدى نفسه وأقام بمكة.وقد هاجر العباس إلى المدينة المنورة قبيل فتح مكة وحضر فتحها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه وسار على نهجه فى ذلك الخلفاء الراشدون من بعده ، وقد توفى العباس فى الرابع عشر من شهر رجب سنة ٣٢ هـ ودفن رضى الله عنه بالبقيع.

وقد أنجب العباس من الأولاد الكثير وكان أكبرهم : الفضل ثم عبد الله بن العباس الذى انتشر منه عقب العباس وهو جد الخلفاء العباسيين وقد ولد عبد الله بن العباس قبل الهجرة بسنتين وكان صلى الله عليه وسلم يحبه ودعا له فقال " "اللهم علمه التأويل" فكان رضى الله عنه أعلم الناس بتأويل القرآن وعلوم الدين .

وعبد الله بن العباس هو الذى نما من نسله البيت العباسى وعقب عبد الله الذى نما كان من ولده : على بن عبد الله بن العباس .

وقد أعقب على بن عبد الله بن عباس اثنين وعشرين من الذكور وإحـــدى عشرة من الإناث وكان أكبر ذكور أولاده : محمد بن على بن عـــبد الله بـــن العباس الذى كانت الخلافة العباسية فى أولاده ، فهو والد إبراهيم الإمام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين ابتدأت بهم الخلافة العباسية .

***

قيام الدولة العباسية :

ضـــعفت الدولـــة الأمويـــة فى أواخر أيامها لأسباب عديدة: ففضلا عن النظام الوراثى فى الحكم الذى ابتدعوه وفضلا عن النظام الثـــنائى فـــى اختـــيار الخلـــيفة وولـــى العهد الذى أدى إلى الفتن والاضطرابات وانقسام البيت الأموى على نفسه وفضلا عن ضعف الخلفاء وانصرافهم عن مشاكل الدولة وانغماسهم فى اللهو والمجون كثرت ثورات الثائرين على بنى أمية من : شيعة وخوارج وزبيريين وغيرهم .

كمـــا كان لشدة الأمويين على بنى هاشم والتنكيل بهم خاصة فـــى موقعـــة كربلاء وما فعلوه بالإمام الحسين وأهله أكبر الأثر فى تقويض حكم بنى أمية وما فعلوه بابن الزبير وضرب المسجد الحرام بالمجانيق فضلا عن إسراف الأمويين فى تحقير العجم والتهوين من شأنهم.كل ذلك وغيره كان سبباً فى ضعف الدولة الأموية وانهيارها وقيام الدولة العباسية على أنقاضها .

ابتدأ العباسيون بتأليف الجمعية السرية للدعوة لانتقال الخلافة إلـــى ولـــد العباس منذ على بن عبد الله بن عباس فى أواخر القرن الثانى فى خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان والذى جعل للدعوة مركزين :

أحدهما: بالكوفة وتولى أمرها : ميسرة مولى على بن عبد الله.

وثانيهما: بخراسان التى كانت مقر الدعوة الحقيقى وتولاها ، محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج .

ومات ميسرة سنة ١٠٥ هـ فأقام محمد بن على مكانه : " بكر ابـن ماهان" وكان لا يقل عن سابقه دهاء ونهوضاً بعظائم الأمور ، فـراح يوثـق الدعوة وينظمها بخراسان خير تنظيم ثم يتوفى الإمام محمـد بن على بن عبد الله بن العباس سنة ١٢٥ هـ عاهداً بالإمامة من بعده لابنه : إبراهيم فارتضاه الدعاة وتوفى على إثره : بكير بن ماهان فخلفه على الدعوة من بعده صهره أبو سلمة الخلال الذى جد فى الدعوة وجد معه الدعاة .

وفـى هذه الأثناء تولى أبو مسلم الخراسانى قيادة الدعوة فى موطـنه واسـتطاع بقوته وسعة حيلته أن يستولى على خراسان ثم بدأت البلاد تسقط فى يده واحدة تلو الأخرى .

وحينـئذ تظهـر إلى النور حكومة بنى العباس السرية وعلى رأسـها أبو سلمة الخلال ، ثم دخل الحسن بن قحطبة – قائد جيوش أبى مسلم الخراسانى من بعد والده قحطبة – الكوفة على إبراهيم بن محمد الإمام الذى عهد بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس السفاح وقتل إبراهيم بن محمد ، ونقلت الأنباء إلى أبى العباس دخول الحسن ابن قحطبة الكوفة فخرج إليها فى أهله يتقدمهم معه أعمامه .

وكـان العباسيون – طوال دعوتهم – لا يذكرون أنهم طلاب

خلافة وأنهم يأخذون البيعة لإمام رضا من آل البيت النبوى حتى لا يثيروا العلويين .

وكـــان أبـــو سلمة الخلال الذى لقب " وزير آل محمد" يرى الخلافـــة فـــى أحـــد أحفاد على بن أبى طالب غير أن أبا العباس اســـتطاع الاتصـــال بأبى مسلم وأطلعه على نوايا أبى سلمة فأرسل إلـــيه وفداً من زعماء الدعوة بخراسان سلموا عليه بالخلافة واضطر أبـــو سلمة الخلال حينئذ أن يعلن تأييده.واتجه أبو العباس السفاح إلى المسجد الجامع فى الكوفة فبايعه الناس بالخلافة وصعد المنبر خطيباً ليحتج بأحقية العباسيين بالخلافة وأنهم الأحق بها من العلويين.

ولم يطمئن أبو العباس لإقامته بالكوفة وأخذ فى بناء الهاشمية" لتكون مقراً لحكمه وأغرى أبا مسلم الخراسانى بأبى سلمة الخلال فأرســـل إليه من قتله ، ثم سقط آخر خلفاء بنى أمية وهو" مروان بن محمد" بعد معركة عنيفة فى موقعة الزاب بقيادة : عبد الله بن على: عم السفاح فهزمه وفر هاربا إلى مصر وظل يلاحقه حتى قتله فى : بوصير من بلدان الصعيد فى أواخر سنة ١٣٢هـ ، وبذلك قامت دولة العباسيين .

***

الحالة السياسية :

تولى أبو العباس السفاح – أول الخلفاء العباسيين – الحكم واتخذ الهاشمية " مقراً لخلافته ودخلت هذه البلاد الممتدة وهذا الملك الكبير فى حوزة العباسيين وتحت سلطانهم الذى أقاموه باسم الدين وإعادة الحكم لآل محمد صلى الله عليه وسلم ونزعه من آل مروان الأدعياء.

وقد اتبع العباسيون فى نظام حكمهم نفس الأسلوب الذى سار عليه الأمويون من قبلهم وهو : عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والإخوة ولم يأخذوا العبرة ممن مضى قبلهم ، بل إننا وجدنا النظم الساسانية فى كل شئون حكمهم وكأن لخليفة العباسى ملكاً ساسانياً يحكم حكما مطلقاً وينتقل بالوراثة فهم ورثة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الشرعيون وقد أقاموا خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث النبى صلى الله عليه وسلم وراحوا يحيطون أنفسهم بهالة من التقديس وأصبحنا أمام حكم استبدادى لا يحسب وزنا للرعية ولا يقيم حساباً للمحكومين فالرعية مسخرة وليس لها من الأمر من شىء .

تولى السفاح الحكم وولى عهده رجلين : أبا جعفر المنصور أخاه فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، ولما تولى أبو جعفر المنصور ولى ابنه محمدا المهدى ولما ولى المهدى ولى ولديه : موسى الهادى فهارون الرشيد ، وجاء الهادى فحاول أن يخلع

هارون فلم يفلح ثم ولى الرشيد فعدل عن ولده الأكبر محمد المأمون إلــى أخــيه محمــد الأمين لأنه ابن زبيدة بنت أبى جعفر المنصور (والمــأمون أمــه جليبة من بلاد فارس.وبعد عشر سنوات رأى أن يكــون المأمون وليا بعد الأمين وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكى وســعيه ثــم أضاف الرشيد إليهما ولده القاسم بن الرشيد الذى سماه المؤتمــن وقســم البلاد بين أولاده الثلاثة :، فجعل الشرق للمأمون: همذان والرى إلى خراسان ، وجعل الغرب للأمين (المغرب ومصر والشام) وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم .

وكان من نتيجة ذلك أن دب الخلاف والقتال بين أبنائه وانتهى الأمــر بخلع الأمين ثم قتله وحدثت حروب وثورات عنيفة فى أكثر البلدان الإسلامية .

لــم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق ولم يعهد لأحد فأختير أخوه المتوكل ثم جاء المتوكل وكرر خطأ الرشيد وولى أبناءه الثلاثة وهم :

محمــد المنتصر بالله ومحمد المعز بالله وإبراهيم المؤيد بالله وأعطــى لأكــبرهم "المنتصر" إفريقية والمغرب والعواصم والثغور جمــيعها وبــلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكــران ، وأعطــى للمعــتز خراسان وطبرستان والرى وأرمينية وأذربــيجان وكور فارس وأعطى للثالث : جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين ، ثم عزم المتوكل فى أواخر حياته أن يخلع المنتصر

أكبر الإخوة من ولاية العهد فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على والده المتوكل فقتلوه وتولى المنتصر وبايعه أخواه ثم قام هو بخلعهما ، فقبل المؤيد وأبى المعتز ثم اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم حيث أخرجها الموالى عن أولاد المتوكل .

ثم اختل نظام الخلافة وأصبح الأمر بيد الأتراك يولون من شاءوا ثم يخلعونه ويولون غيره حتى جاء المعتمد بالله وهو الخامس عشر فعهد إلى ابن أخيه المعتضد وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات من جديد والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه ولم يكن للخلفاء فى عهدهم إلا الاسم أما التولية والعزل والحكم الفعلى فكان لبنى بويه حين ولوا وخلعوا جميع الخلفاء فى عهدهم إلا أحمد القادر بالله الذى طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم ثم تعاقبت الخلافة بعد ذلك من الخليفة إلى ابنه حتى أغار التتار على دولة الخلافة وقتلوا المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ .

وقد أخذ العباسيون عن الفرس نظام الوزارة مع أن لفظ الوزير قد ورد فى القرآن الكريم فهو كلمة عربية تعنى : المساعد والمناصر إلا أن الوزير فى الدولة العباسية قد أطلق منذ بدء العصر العباسى على المستشار الأول للخليفة فى إدراة شئون الدولة " حيث

لم تتمهد قواعد الوزارة وتتقرر قوانينها إلا فى الدولة العباسية وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يطلق عليه : الكاتب أو المشير.

وقد تولى الوزارة للعباسيين : وزراء من الفرس وأول من اتخذه العباسيون وزيراً : أبو سلمة الخلال حتى مات فاتخذ السفاح من بعده خالد بن برمك وظل حتى عهد المنصور وولى ابنه يحيى بن خالد أزربيجان ثم قلد ابنه الفضل بن يحيى المشرق كله وقلد ابنه جعفراً المغرب كله وظل يحيى البرمكى وولداه جعفر والفضل يتولون أمور الدولة سبعة عشر عاماً كانوا المتصرفين فى كل شئونها حتى أصبغوها بالصبغة الفارسية ، ثم كانت سنة ١٨٧ هـ فنكبهم الرشيد نكبتهم المشهورة وأمر بقتل جعفر وحبس أبيه وإخوته ماعدا محمدا ومات يحيى والفضل ابنه مازال محبوساً وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى سبب هذه النكبة فقيل إن السبب هو إطلاق جعفر لعلوى ثائر من محبسه وهو يحيى بن عبد الله وقيل بسبب ماكانوا يبطونونه من الزندقة وقيل بسبب تجريدهم للرشيد من كل سلطان وقيل لأسباب شخصية بينه وبين الرشيد .

ثم يأتى عصر المأمون فيقلد الوزارة لأسرة بنى سهل الفارسية وكان أول وزير منهم هو الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين : رياسة السيف والقلم وظلت التقاليد الفارسية مطبقة فى كل جانب من جوانب الدولة وحوكيت تقاليد الفرس فى كل شىء فى نظام الحكم والإدارة حتى المأكل والملبس وكانت أعلى المناصب وأكثرها فى يد

الفـــرس وكان منهم الوزراء والقواد حتى نكبهم العباسيون نكبات متوالية فكانت نكبة البرامكة أولا ثم نكبة بنى سهل ثانياً .

وبـــناء علـــى ذلـــك فقد نشب عداء مستحكم بين الفرس والعرب وذلك بسبب استبداد الفرس وإرادة العرب إسترداد أمجادهم التى فقدوها فى حكم العباسيين والتى كانوا يتمتعون بها أيام حكم بنى أمية.

ثم كان التحول الخطير فى تاريخ الدولة العباسية التى راحت تعـــتمد اعـــتماداً كبيراً على عنصر آخر بدلاً من العنصر الفارسى حيث اتجه العباسيون إلى الأتراك واعتمدوا عليهم اعتماداً كبيراً فى إدارة شـــئون الدولـــة وفتح الخليفة "المعتصم" الباب على مصراعيه لقـــواد الأتـــراك حـــتى يمســـكوا بزمام الأمور فى الشئون الإدارية والعســـكرية وولـــى كبيرهم " إشناس" مصر وجعل له الحق فى أن يولـــى علـــيها ولاة من قبله ثم خلفه ابنه الواثق فولى " إشناس " من بغداد إلى آخر أعمال المغرب وولى على الجانب الشرقى "إيتاخ".

وتدخـــل الأتـــراك فـــى شئون الدولة وأصبحت تولية الخلفاء بـــأيديهم وحملـــوا رجـــال الدولة على البيعة للمتوكل الذى فطن إلى خطورة نفوذهم فحاول التخلص منهم وراح يضربهم ببعضهم البعض إلا أن الأتراك فطنوا لمأربه ، وراح المتوكل يعيد العرب إلى الجيش وقيادته وضم إلى وزيره " عبيد الله بن يحيى ابن خاقان" اثنى عشر ألفـــا مـــن العرب إلا أن الأتراك قد صمموا على مبادرته واستغلوا سوء العلاقة بينه وبين ابنه المنتصر فعزموا على قتله والتخلص منه فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان فى شوال سنة ٢٤٧ هـ ومن وقتئذ

أصـــبح الأتـــراك كـــل شيء فى الدولة واعتلى المنتصر عرش الخلافة بأيدى قتلة أبيه من الأتراك وحرضوه على خلع أخويه : المعتز والمؤيد، ثم يتوفى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته لسنة ٢٤٨ هـ فيولون أحمد المســـتعين ثـــم يخلعونه ويبايعون المعتز بالله بعد أن سئم دسائسهم ونزل بـــبغداد فكـــان هناك خليفتان : خليفة معزول فى بغداد وخليفة مولى فى ســـامراء وهـــو المعتز ثم اضطروا المستعين إلى خلع نفسه وأصبحت الخلافـــة خالصـــة للمعتز سنة ٢٥٢ هـ ثم أجبروا المعتز على خلع نفسه فصـــدع لأمـــرهم وبايعوا محمداً المهتدى وسجنوا المعتز ثم قتلوه ثم يتولى الخلافة "المعتمد أحمد بن المتوكل ويبايعه الترك .

وكانت ثورة الزنج قد نشبت فى عهد المهتدى وعجز الأتراك أن يجهـــزوا علـــيها ويســـتطيع المعتمد وبقيادة أخيه طلحة الملقب بـــالموفق الـــذى قـــاد المعارك بنفسه مع الزنج ومع الثائرين بإيران واســـتطاع أن ينتصر عليهم ويقضى على الزنج قضاءً مبرماً وبذلك رد للخلافـــة هيبـــتها وأحنى الترك رؤوسهم وظلوا يصدعون لأمر الخليفة وأخيه الموفق حتى توفيا .

ثم بويع سنة ٢٧٩ هـ ابن أخيه الموفق " أحمد المعتضد" وكان قـــد أظهـــر بـــلاء فـــى الحروب مع الزنج فيهابه الأتراك وقوادهم ويحجمهـــم ثـــم ظلوا خاضعين لابنه المكتفى الذى ولى الخلافة سنة ٢٨٩هـ ثـــم يتوفى سنة ٢٩٥هـ ويخلفه المقتدر وهو فى الثالثة عشرة مـــن عمـــره بعـــد أن ولاه أخوه المكتفى وليا للعهد إلا أن الناس قد رفضـــوا ذلـــك لصـــغر سنه وأجمعوا على تولية عبد الله بن المعتز

وأخـــذت له البـــيعة وبايعه القضاة والعدول وتلقب "بالمنتصف" وقيل "بالراضي" وقيل " بالقائم بالحق" وتقلد ابن الجراح الوزارة ولكن الأمر لم يدم له أكثر من يوم وليلة فقد ثار عليه الأتراك وقتلوه ورثاه كثير مـــن الشعراء وعادت الخلافة إلى المقتدر وعاد الأتراك إلى تفوذهم قـــبل المعـــتمد وأخيه الموفق ثم يعزل الأتراك المقتدر ويولون أخاه محمـــداً الملقـــب بالقاهـــر بالله ثم يقتلونه سنة ٣٢٢ هـ ويولون بعده الراضي بالله ثم توفى سنة ٣٢٩ هـ ويخلفه أخوه المتقي بالله ثم يخلع ســـنة ٣٣٣هـ ويأتي بعده المستكفي بالله ابن المكتفى ولم يمض عام واحـــد علـــى خلافـــته حتى ينزل معز الدولة البويهى بغداد ويلقبه المســـتكفى بأمـــير الأمراء ثم قبض معز الدولة على المستكفى بالله وخلعـــه من الخلافة ونهبت داره وسملت عيناه وبذلك ينتهى العصر العباسى الأول بدخول البويهيين بغداد .

فقد تولى الخلافة فى هذه الفترة من العباسيين اثنان وعشرون خليفة أولهم : أبو العباس عبد الله السفاح وآخرهم المستكفى بالله وقد ظلـــت الدولة مستقرة فى عهود العشرة الأوائل من هؤلاء الخلفاء ثم أخـــذت الحالـــة السياســـية فى التدهور والاضطراب بسبب تسليط الأتـــراك على شئون الدولة وأول من مكن لهم هو الخليفة المعتصم ابـــن الرشيد واشتد خطرهم فى أيام المتوكل بن المعتصم حتى قتلوه وولوا ابنه مكانه ثم أصبحوا أشد خطراً بعد ذلك .

أحداث مؤثرة فى السياسة والأدب :

بعد أن ملك العباسيون واستولوا على مقاليد الخلافة الإسلامية أعلن العلويون العصيان ورأوا أن العباسيين قد اغتصبوها منهم فهم الورثـــة الحقيقـــيون لأنهـــم أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزعمـــوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نص على إمامة على ابـــن أبـــى طالب بعده وأن أبناءه قد ورثوا عنه إمامته ، بينما زعم العباسيون أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجدهم العباس :، إن الخلافة تكون فى ولدك".

واشتدت الخصومة بين الفريقين فى أحقية القرب من الرسول الكـــريم وأحقية ميراث ولايته على الأمة مما كان باعثا على تضييق الخـــناق علـــى العلويين من قبل الخلفاء العباسيين والجد فى طلبهم وحبسهم والقيام بالثورات المضادة من قبل العلويين مثلما فعل "محمد ابـــن عـــبد الله " حيث أعلن الثورة على الخليفة المنصور وهى أول ثورة للزيدية حيث أفزعت المنصور بعد أن غلب على المدينة وكتب لـــه كـــتابا يعـــرض علـــيه فيه الأمان إلا أنه رفض التنازل فأرسل "المنصور" جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى واستطاع أن يهزم الـــنفس الزكـــية واحتزت رأسه وحمل إلى المنصور وقضى الخليفة على هذه الثورة الشيعية إلا أن التشيع لم يقض عليه وأخذ يزداد سراً وجهـــراً وتكاثـــرت فـــرقه فكانت الزيدية ومقرها البصرة والإمامية ومقرها الكوفة والتى انقسمت فيما بعد إلى فرق كثيرة أهمها : الإثنا عشرية ، والإسماعيلية .

ورأت الإسماعيلية:- نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق والذى كان قد توفّى فى حياة أبيه-أن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد حتى لو مات فى عهد أبيه مثلما مات إسماعيل وعندهم : يتلو محمداً أربعة أئمة مستورين يعقبهم عبد الله المهدى رأس الدولة الفاطمية .

بينما رأت الشيعة الإثنا عشرية:أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه موسى الكاظم وسموا بالإثنا عشرية لأن الإمامة عندهم تتعاقب فى إثنى عشر إماماً هم : على فالحسن فالحسين فعلى زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسى الكاظم ثم على الرضا ثم محمد الجواد ثم على الهادى ثم الحسن العسكرى ثم محمد المهدى المنتظر الذى توفى سنة ٢٦٠ هـ وأنه غاب وسوف يعود .

وفى عهد الهادى خرج الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب فى مكة والحجاز فقوتل حتى قتل وقتل كثير من أتباعه وظلوا فى العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان ، واعتقل الرشيد موسى الكاظم الإمام السابع عند الشيعة وظل فى السجن حتى توفى .

وفى عصر المأمون يخرج إبراهيم بن موسى سليل الحسين ويقضى عليه ويخرج محمد بن جعفر الصادق بمكة ثم يعفو عنه المأمون بل إنه عهد بولاية العهد من بعده إلى على الرضا بن موسى الكاظم بإشارة من وزيره الفضل بن سهل وكان فيه تشيع إلا أن العباسيين قد ثاروا عليه فرجع عن رأيه وتوفى على الرضا.

ومن أهم الثورات التى قامت بعد عهد المأمون الثورة التى قام بهـا محمـد بـن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين أيام المعتصـم سـنة ٢١٩ هـ فهزمته جيوش المعتصم بقيادة عبد الله بن طاهر وتم أسره وحبسه إلا أنه استطاع الفرار من سجنه .

أمـا الخـوارج: فقـد ضـعفت قوتهم بسبب فتك الأمويين بهم وتدمـيرهم حـتى اسـتطاعوا القضاء عليها ولم يتبق منهم فى عهد الدولـة العباسـية سوى فلول متفرقة فى عمان والجزيرة وخراسان وتونـس ، ومـع ذلـك فقد قاموا بثوراتهم ضد الخلافة ، حيث قام خوارج عمان "الإباضيون" بقيادة الجُلُنْدى وهزمه السفاح وقضى عليه وثـار "ملـبَّد بن حرملة الشيبانى " فى عهد المنصور وقضى عليه خـازم بن خزيمة وثار الإباضية بتونس وقضى عليهم يزيد بن حاتم المهلـبى ، وفـى عهـد المهـدى ثار بخراسان يوسف بن إبراهيم المعـروف بالـبرم فـى جمـع من الخوارج وهزمه يزيد بن مزيد الشيبانى وأسره وجمعاً من أصحابه وقتلوا وصلبوا بأمر من الخليفة المهدى ، وفى عهد الرشيد خرج الوليد بن طريف الشيبانى بالجزيرة فدمـره جيش الرشيد بقيادة يزيد بن مزيد ، وثار حمزة الشارى فى خراسـان ولقـى حتفه ، وفى عهد المأمون خرج مهدى بن علوان الحـرورى بسواد العراق وباءت ثورته بالفشل ثم كانت ثورة محمد ابـن عمرو الشيبانى بديار ربيعة وباءت ثورته بالفشل حتى استكانوا ولم يعد لهم حراك وضعفوا وضعفت دعوتهم ضعفا شديداً .

ومن الأحداث التى أثرت فى الحياة السياسية وبالتالى فى الحياة الأدبـــية تــبعاً لها : حركة الزندقة ببغداد والعراق أيام المنصور ثم المهـــدى الـــذى جد فى قتالهم لأنه وجد فى حركتهم شراً مستطيراً يهدد كيان الدين والدولة معاً وراح يقتلهم ويصلبهم نكالاً لغيرهم .

وفـــى عهـــد المهدى والهادى والرشيد كثرت الثورات من قبل الخارجيـــن من الداخل والخارج خاصة من قبل الروم وتولى هارون الرشيد قيادة الجيوش بنفسه وحقق الانتصارات على جيوش الروم ، وقد ولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ إلى سنة ١٩٣هـ وقضى حياته كلها جهاداً فقد كان يحج سنة ويغزو سنة أخرى ويعد عصره العصر الذهـــبى للخلافـــة العباسية فى كل نواحيها ولم تخل أيامه من الفتن والثورات والحروب والانتصارات على: الروم والخرمية وثورة بلاد الزاب جنوبى الجزائر ثم كان الصراع العنيف بين الأمين والمأمون ومانشأ عن ذلك من حروب بينهما بسبب خلع الأمين لأخيه المأمون وقطـــع اســـم المأمون من خطبة الجمعة وصنع المأمون صنيعه فى خراســـان والـــتف الحـــزب العربى حول الأمين فأمه زبيدة هاشمية عربـــية بنـــت أبـــى جعفر المنصور والتف الحزب الفارسى حول المأمون فأمه أمة فارسية تسمى مراجل ".

وراح الطـــرفان يعدان الجيوش لخوض الحرب بينهما وسارع الأميـــن لحـــرب المأمون وأرسل إليه على بن عيسى بن ماهان فى جـــيش جــــــرار لحرب المأمون وجنده والتقـــى به فـــــى الرى

طاهــر بــن الحسين فهزمه وقتله ثم يرسل الأمين جيشاً آخر بقيادة الحســين بــن علــى بن عيسى بن ماهان ويوجهه لملاقاة طاهر بن الحســين فــيلقى نفس الهزيمة التى منى بها والده قبله ثم تدخل مكة والمديــنة فــى طاعة المأمون وتحاصر جيوش المأمون بغداد لمدة خمســة عشــر شــهراً والتى راحت ترميها بالمجانيق حتى أصابها الدمار والهدم والحرق وتحولت الحياة فيها إلى جحيم لا يطاق حيث تلــتهمها النــيران من كل جانب وهدمت الدور والقصور والمساجد وعطلت الصلوات وفعلت المنكرات ونهبت الأموال وكثرت الجرائم وراحت محلاتها تسقط واحدة تلو الأخرى فى يد الجيوش المحاصرة ولا يجد الأمين أمامه إلا التسليم والاستسلام فسلم نفسه لأعدائه ويقتل فى طريقه لخمس بقين من شهر المحرم سنة ١٩٨ هـ وأصبح الأمر خالصــاً للمــأمون ، وراح الشعراء يبكون بغداد بكاء حاراً موجعاً مصــورين ما حدث لها والأحداث والكوارث التى أصابتها أمثال : الخريمى الذى بكاها بكاء مراً .

كمــا حــدث فــى عهــد المأمون ثورات كثيرة كان لها هى الأخــرى تأثــير كبــير فــى الشعراء والأدباء كثورة الخرمية فى أذربــيجان ســنة ٢٠١ هـ فضلا عن حروبه ضد امبراطور بيزنطة الــذى كان يقدم العون والمساعدة لبابك الخرمى ضد المأمون فراح المــأمون لــيقود الجيوش بنفسه ومعه قواده أمثال : أخيه المعتصم، والأفشين، وخالد الشيبانى، وجعفر الخياط، ومضى فى حروبه حتى بلغ

أنقرة فارتعدت فرائص" تيوفيل" إمبراطور الروم وطلب الصلح إلا أن المأمون ظل يوالى حملاته حتى سنة ٢١٨ هـ فلبى نداء ربه وهو فى جهاده فى موضع يسمى " البُدَنْدُون" ثم حمل جثمانه إلى طرسوس ".

ثـم تظل الثورات والحروب أيام الخليفة المعتصم ، فثار الزُّطُّ بالبصـرة وقضى على ثورتهم ثم أرسل جيشا بقيادة الأفشين لحرب بـابك الخرمى ومعه قادة أكفاء أمثال : أبى دلف العجلى" ومحمد بن يوسف الثغرى" حتى استطاعت جيوش المعتصم أن تقضى على بابك قضـاءاً مـبرماً واستسـلم صاغراً ذليلاً وأدخل بغداد مقيداً وقتل وعلقـت رأسـه وأحرق جسده ليكون عبرة لغيره ويوالى المعتصم حـروبه داخلـيا وخارجيا ومن أشهر حروبه:حربه التى شنها ضد امـبراطور الـروم حينما أغار على" زبطرة" وقاد جيشا كثيفاً بنفسه ومعه قواده الأكفاء وهزم البزنطيين فى موقعة عمورية " التى فتحها عنوة وخرب" أنقرة" وعاد بعد انتصار ساحق وهزيمة مرة لأمبراطور الروم .

ومـن الـثورات الكبرى والتى احدثت أثراً كبيراً فى الأحداث السياسية والأدبية ثورة الزنج التى استمرت أربع عشرة سنة ونصف تقريباً منذ شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ حتى شهر صفر ٢٧٠ هـ والتى **أشعلها شخص فارسى من إيران والذى زعم أنه نبى يوحى إليه وأن الله أرسله ليخلص الزنج من الظلم وادعى أنه من نسل زيد بن على زين العابدين بن الحسين .**

واســـتطاع هذا الفاسق أن يجمع ألوفا من الزنج حوله فى ثورة سميت بثورة العبيد على السادة الجائرين وراح يحارب الدولة ويشن الغــارات علـــيها وكثرت إغاراته على البصرة وما حولها واستغاث أهلهـــا بالخليفة " المهتدى" الذى أرسل إليهم جيشا إلا أنه لم يستطع الوصـــول إلـــى مديـــنة صاحب الزنج لكثرة القنوات والأدغال التى حولهـــا.فـــيقوى صـــاحب الزنج ويشتد خطره ويستولى على مدينة "الأبُلـــة" ويقـــتل بهـــا خلقاً كثيراً ويحرق دورها ويعمل فيها السلب والنهـــب ويهـــاجم مديـــنة " عبَّادان" فاستسلموا له وولى وجهه نحو الأهـــواز " ودخلها ، ثم لم يلبث أن هاجم مدينة البصرة أثناء صلاة أهلهـــا إحدى الجمعات وانقض عليها من ثلاث جهات حتى بلغ عدد القـــتلى بها نحو ثلاثمائة ألف وأحرق المسجد الجامع وراح الشعراء يبكونها بدموع غزار وفى مقدمتهم : ابن الرومى .

ثم جهزت الدولة جيشاً كثيفاً جراراً بقيادة الموفق " أخى الخليفة " المعتمد " وحارب الزنج وهزمهم مراراً وأسر قائدا من قوادهم هو: يحيى البحرانى وأرسله إلى " سامراء" حيث ذبح وأحرق .

ثـــم توالـــت الحـــروب بين الطرفين بعد ذلك وظل" الموفق" فى حـــربهم إلى أن هزمهم وفر الكثيرون واستسلم آخرون وهاجم قصر صاحب الزنج ومزقه شر ممزق واستولى على قصره فى صفر سنة ٢٧٠ هـ بعد موقعة عظيمة بين الطرفين وانتهت ثورة الزنج بعد أن ذهب ضحيتها نحو المليون ونصف من البشر .

ومن الثورات الكبرى أيضا والتى كان لها تأثير كبير فى الحياة السياسـية والأدبية فى العصر العباسى الأول : ثورة القرامطة التى خرجت من رحم الشيعة والعقيدة الشيعية ونسبة إلى حمدان قرمط .

وكانـت هـناك حـروب كثيرة بين الدولة العباسية والقرامطة واستطاع القرامطة أن ينتزعوا بعض البلاد ويؤسسوا لهم كياناً تحت إمـرتهم وينضـوى تحت لوائهم وعقيدتهم الفاسدة التى خرجت عن الإسـلام والتزمـت عقـائد ما أُنزل الله بها من سلطان فقد عطلوا الفـرائض الدينـية وجعلوا بيت المقدس قبلتهم ويحجون إليه وجعلوا الصـوم يوميـن فى العام يوم المهرجان ويوم عيد النيزوز وحرموا النبيذ وأحلوا الخمر إلى غير ذلك من عقائدهم الفاسدة .

***

الحالة الاجتماعية :

اختلفت الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الأول عن الحياة الاجتماعية فى عصر بنى أمية ، فلقد كان العصر الأموى عصراً عربياً محافظاً على التقاليد والعادات العربية الخالصة حيث تعصب الخلفاء الأمويون للعرب وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم بينما كان العصر العباسى عصراً إسلامياً شاملاً منفتحا يضم كل الثقافات والعادات والتقاليد التى شملت معظم الأجناس والطوائف التى تكون منها المجتمع العباسى من : عرب وفرس وترك وهنود ونصارى وغير ذلك من الأجناس والديانات المتعددة التى وجدت فى هذا العصر .

« وقد انصهرت كل هذه الأجناس والديانات فى بوتقة واحدة فكونت مزيجاً من الثقافات والعادات التى لم تكن موجودة من قبل فى أكثرها خاصة بعدما اختلطت الأجناس مع بعضها بالزواج والمعاملة والمشاركة فى كل شئون الحياة ، ولم يقتصر الأمر على الزواج فى أمر الامتزاج وإنما كانت مداخلة ومشاركة فى كل شىء ماعدا العقائد بالنسبة لليهود والنصارى والمجوس حيث اشتركوا فى التجارة وتجاوروا فى السكنى وتبادلوا المنافع التى هى ضرورة من ضرورات العيش لقوم جمعتهم الحاجة الملحة على أن يتنازل كل منهم لصاحبه عن شىء ليصيب به شيئاً آخر ".

ومن الحقيقة أن العرب قلدوا هذه الشعوب فى كثير من

العادات والتقاليد حتى المستهجن والسيء منها إلا من عصم الله ، وسرت التقاليد والعادات العجمية - خاصة الفارسية منها وسط المجتمعات العربية وتأثروا بها تأثراً كبيراً فى كل شيىء حتى فى المأكل والمشرب والملبس فضلاً عن الفنون والإدارة والثقافة وغيرها من مظاهر الحياة مثل الزينة والترف والمجون .

والعجم بدورهم على اختلاف ألوانهم وألسنتهم قد اكتسبوا بدخولهم فى الإسلام جنسية إسلامية وعزفوا الأخلاق القويمة والعادات الصالحة وثقفوا اللغة العربية لغة القرآن الكريم حتى ينهضوا بأمور دينهم ودنياهم فضلاً عن العادات والتقاليد العربية الأصلية التى تأثروا بها أيضاً فلقد تأثر كل من الفريقين : العرب والعجم بالآخر وتكون من كل هذا عادات وتقاليد ومجتمع جديد فى شتى مناحى الحياة .

وقد جعل العباسيون "بغداد" عاصمة لدولتهم ومقراً لخلافتهم وأحاطوا سلطاتهم بمظاهر الترف التى كانت للأكاسرة من قبل وتأثر العباسيون بحضارة الفرس وأساليبهم فى بناء القصور وزخرفتها وأنشأوا الحدائق والبرك والتماثيل وأكثروا من مجالس اللهو وحانات الخمر ومجالس الغناء وانتشرت الخلاعة والمجون.ولكن ليس معنى ذلك أن المجتمع العباسى كان كله منحلاً فلقد وجد اللاهون والعابثون ووجد أيضاً الجادون والملتزمون والمتصوفون والزهاد ، وبجانب العابثين والماجنين والمتحللين وجد المتدينون والعلماء الأفاضل .

وكـــان معظم هؤلاء المجان من عناصر فارسية أو ممن تأثر بالفـــرس مـــن المسلمين ، كما وجدت دعوة الزهد والتصوف لتكون دعـــوة مضـــادة لدعوة التهتك والمجون حيث امتلأت مساجد بغداد وغـــيرها مـــن البلدان بالزهاد والمتصوفة والعلماء ونشطت الدعوة نشـــاطا ملحوظـــا تحذر من عواقب اللهو والخلاعة والزندقة والمتع الدنيوية .

كذلـــك برزت على الساحة الاجتماعية فى المجتمع العباسى : نزعات الشعوبية التى راحت تفضل الفرس والأجناس الأخرى على العـــرب وتبـــنى هذه الدعوة الشعراء المجان من أصول غير عربية كبشار بن برد وأبى نواس وغيرهما.

كذلك انتشرت فى المجتمع العباسى حركات الإلحاد والزندقة بغضـــا للإســـلام ومـــن حملوه من العرب واتجه هؤلاء إلى ديانات فارسية قديمة مثل الزرداشتية (نسبة إلى زرادشت) الذى كان يدين بوجـــود إلهين أحدهما للخير والآخر للشر وكان يعبد النار ، ومثل المانويـــة نســـبة إلـــى" مـــانى" الذى كون دينا مزجه من الزرادشتية والمســـيحية والـــبوذية وكان يعتقد بتناسخ الأرواح ومثل المزدكية نسبة إلى" مزدك" وكان يقول بوجود إلهين ويدعو إلى الشهوات ويرى أن الأموال والنساء شركة عامة للناس جميعاً .

كذلـــك كان من مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى

الأول وجـود ثـلاث طبقات أساسية تختلف من حيث الغنى والجاه والمنزلة الاجتماعية .

أولها : الطبقة العليا وتشمل الخلفاء والوزراء والقواد والولاة وكبار رجال الدولة والأعيان وزوى اليسار .

وثانيها : طبقة وسطى وتشمل موظفى الدواوين ورجال الجيش والصناع والتجار الكبار .

وثالثها :طبقة دنيا وتشمل عامة المجتمع.

كذلك ظهر فى المجتمع العباسى ظاهرة الثراء والترف والغنى وكان يتمتع به الخلفاء والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من شعراء وأدباء وعلماء ومثقفين ومغنين بينما راح عامة الناس يتجرعون البؤس والشقاء والفقر كأنه قد كتب على الشعب أن يكدح ليعيش الآخرون بأسباب النعيم بينما هو يحرم منه .

كذلك انتشرت الأديرة والحانات ومجالس اللهو التى امتلأت بالمغنيين والمغنيات والراقصين والراقصات وكثرت الجوارى كثرة هائلة حتى غصت بهن القصور ومجالس اللهو والشراب ولقد كثر الرقيق فى العصر العباسى كثرة مفرطة وكان رقيق النساء أكثر من رقيق الرجال حيث أحل الإسلام للشخص أن يمتلك من الجوارى والإماء ماشاء بينما قيد حرية الشخص بالزواج من الحرائر وكثرت الجوارى بسبب دور النخاسة التى كانت تتاجر فيهن وتعرضهن للبيع.

وقد استكثر الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة من المغنين والمغنيات وفاضت بهم القصور حيث شغل الناس فى هذا العصر بالغناء وكأنه نعيمهم من دنياهم الذى لا يريدون غيره لما يحدثه فى نفوسهم من غبطة وبهجة ، ومن أبرز المغنين : إبراهيم الموصلى" ومخارق" وابن جامع" مغنى الرشيد واسحق الموصلى" ومن أشهر المغنيات : "علوية".

كذلك انتشرت الحرية فى القول والفعل بصورة لم يسبق لها مثيل فى ذلك العصر حيث استطاع كل شخص أن يفعل كل ما يريد وأن يقول كل ما يريد خاصة فى عهد الخليفة" المأمون" الذى أطلق العنان للحرية المطلقة أو شبه المطلقة فى عصره سواء كانت حرية دينية أو دنيوية .

***

الحالة العلمية والثقافية :

لقـــد خطت الأمة الإسلامية فى العصر العباسى الأول خطوة جديـــدة فى حياتها العقلية وحركاتها العلمية والثقافية وكان هذا نتيجة طبيعـــية وضـــرورة لكـــل ما أحاط بها من بيئة طبيعية واجتماعية مغايرة للبيئات الأخرى التى سبقتها .

ولقد وجدت فى العصر العباسى الأول معاهد للعلم مع أنه لم تكـــن المـــدارس قـــد أنشئت بعد حيث قيل : إن نظام الملك الوزير السلجوقى (من ٤٥٦ هـ – ٤٨٥هـ) هو أول من أنشأ المدارس بينما ذهب آخرون إلى أن المدارس قد أنشئت فى العالم الإسلامى قبل أن يولـــد نظام الملك مثل المدرسة البيهقية بنيسابور والمدرسة السعدية بنيسابور والتى بناها : نصر بن سُبكتكين أخو السلطان محمود ".

علـــى كـــل فلم يكن فى العصر العباسى الأول مدارس ولكن وجـــدت معـــاهد أخرى قامت بعملية التعليم والتثقيف والتربية مثل : الكتاتيـــب التى كانت منتشرة فى كل موضع حيث كانت تعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم واللغة والأدب .

فضـــلاً عـــن وجـــود المساجد التى انتشرت فى أنحاء الدولة وكانت بمثابة مدارس تعليمية تعلم الدين واللغة والأدب ، وفضلاً عن وجـــود المكتبات التى كانت موجودة حتى قبل الفتح الاسلامى مثل : مكتـــبة الإســـكندرية ومدرســـة «الرُها» و«قنسرين» و«نصيبين» التى بناها الســـريان فـــيما بين النهرين فى جملة ما بنوه من مدارس حيث بنوا

نحو خمسين مدرسة لتعليم العلوم السريانية واليونانية وكان يتبع هذه المدارس مكتبات ، كما كان لكسرى أنوشروان مدرسة بجند نيسابور وكان بمرو خزانة للكتب الفارسية .

وكانت أكبر مكتبة فى العصر العباسى الأول : خزانة الحكمة أو بيـــت الحكمـــة التى أسسها الخليفة«هارون الرشيد»ثم جاء الخليفة المـــأمون ونماهـــا وقواها وكان يعمل فى هذه المكتبة علماء مختلفوا الثقافة ذو مقدرة على ترجمة الكتب اليونانية والفارسية وجلبوا إليها مختلف الكتب من البلدان الأخرى الرومية والفارسية وأرسل الخليفة المـــأمون بعـــثة إلى القسطنطينية لإحضار الكتب اليونانية من:طب وفلســفة وكـــل العلوم التى اشتغل بها العرب وقد ظلت حتى مجيئ التـــتار سنة ٦٥٦ هـ فضلاً عن المكتبات الخاصة التى كانت للخلفاء والـــوزراء والأمـــراء وكـــبار رجـــال الدولة والأغنياء من العلماء والأدباء .

كما كان باب التعليم مفتوحا على مصراعيه لكل من شاء متى استطاع أهله أن ينفقوا عليه أو استطاع هو أن يجد ما يقتات به .

ولهذا نبغ كثير من الأدباء والعلماء الفقراء مثل:أبى العتاهية وأبى تمام ، فضلا عن إحضار المعلمين من جانب الخلفاء والأمراء والأغنياء لأولادهم .

وفضلا عن مجالس المناظرة التى كانت من أهم معاهد التعليم فى العصر العباسى الأول وكانت هذه المجالس فى القصور والدور

والمساجد وفى حضرة الخلفاء والوزراء والعلماء فى مختلف العلوم: الدينية واللغوية والأدبية والشعرية والفقهية حيث كانت هذه المجالس والمناظرات من أعظم أسباب التقدم العلمى والأدبى وأعطت حافزاً للعلماء والأدباء للبحث والدرس والاجتهاد كما حملتهم على الجد وتدقيق النظر فى معلوماتهم .

ولقد انتشرت المراكز العلمية والثقافية فى أنحاء الدولة العباسية والتى كانت مثابة مصابيح للعلم والأدب وتهدى إليها المتعلمين والمتأدبين وكانت بمثابة منارات تشع العلم والأدب مثل : الحجاز الذى ظلت فيه الحركة العلمية والأدبية قائمة فى العصر العباسى خاصة فى مكة والمدينة،والعراق :التى كانت أهم مراكز الحياة العلمية والعقلية والأدبية وفروع العلم المختلفة وكانت البصرة والكوفة وبغداد والمربد من أهم المراكز العلمية فى العراق وقد استمر المربد فى العصر العباسى يؤدى غرضه الذى كان يؤديه فى العصور السابقة وأصبح غرضا يقصده الشعراء ليأخذوا عن أعرابه الملكة الشعرية مثل : بشار وأبى نواس .

ومدن : الفسطاط والإسكندرية فى مصر حيث كانت فيهما حركة علمية ودينية وأدبية عربية ، كما أن وجود مصر تحت الحكم العربى شجع الكثيرين من الشعراء المشهورين أن يفدوا إليها قديماً خاصة فى عهد عبد العزيز بن مروان فقد وفد عليه فى مصر : كثير عزة،وجميل بثينة،الذى مات بمصر،ونصيب،وعبد الله بن قيس

الرقيات ، وأبو نواس"وأبو تمام' ، فضلا عن المراكز العلمية والأدبية فـــى بـــلاد الشام خاصة مدينة دمشق وغيرها التى قامت فيها حركة علمـــية وأدبية كبيرة من نثر وشعر حيث قامت فيها الزعامة العلمية والأدبية أيام حكم بنى أمية حتى إذا جاء العصر العباسى تحولت هذه الـــزعامة إلـــى العراق تبعاً لتحول العاصمة من دمشق إلى بغداد ، ولكـــن مـــع ذلـــك ظل شعراء عرب الشام وما يجاورها من أشعر شـــعراء الدولـــة العباســـية مثل : العتابى ومنصور النمرى وأشجع السـلمى وربيعة الرقى وأبى تمام والبحترى ، وكذلك كان الحال فى النـــثر الفـــنى فقد نشأ بالشام وكان زعيم ذلك؛عبد الحميد الكاتب ثم انتقلت الزعامة إلى العراق فى العصر العباسى فتصدر الكتاب : عبد الله بن المقفع والجاحظ وسهل بن هارون والصولى وغيرهم.

وبـــناء على ما سبق فقد حدث تطورعلمى وأدبى كبيرين فى العصـــر العباسى الأول وساعد على ذلك هذا التطور العقلى المستمد مـــن تجـــارب الأمـــة والأحـــداث المختلفة التي مرت عليها والتأثر بالـــثقافات الأجنبـــية واتســـاع آفـــاق البحث وإزدهار الثقافة الدينية واللغوية والأدبية والاهتمام بالعلوم اللغوية ورواية الأشعار والأخبار وكـــثرة التأليف والتدوين فى كل الفنون من شرعية ولسانية : حيث **ألفـــت أمهات الكتب فى مختلف الفنون والعلوم فى العصر العباسى الأول مـــثل : كـــتاب : " جامع البيان " فى التفسير " والموطأ " فى الحديـــث. والفقـــه للمذاهب المعروفة : لأبى حنيفة ومالك والشافعى**

وأحمد بن حنبل صاحب " المسند " فى الحديث وكتاب النحو لسيبويه بعنوان " الكتاب " وكتاب " العين " فى اللغة للخليل بن أحمد وكتاب: الجمهـــرة " لابن دريد وكتاب " مجاز القرآن فى البلاغة لأبى عبيدة والبـــيان والتبييـــن " للجاحظ " و" البديع " لابن المعتز وتاريخ الأمم والملـــوك " للطبرى ، وكتاب : " نقد الشعر " و" نقد النثر " والكامل فى اللغة للمبرد .

وكتاب : " طبقات فحول الشعراء " لابن سلام وغير ذلك من الكتب المؤلفة فضلاً عن الكتب المترجمة مثل كتاب " كليلة ودمنة " الذى ترجمه عبد الله بن المقفع من الفارسية وهو قصص ترجع إلى أصول هندية .

***

الشعر فى العصر العباسى الأول :

ازدهـــر الشـــعر العـــربى ازدهاراً كبيراً فى عصر بنى أمية وكانـــت صـــناعته رائجـــة إلـــى حد كبير وكثر الشعراء وتعددت موضوعاتهم وأغراضهم الشعرية .

ولكـــنه كـــان أكثر ازدهاراً وتقدماً فى عصر العباسيين وبلغ الشـــعر مـــبلغاً عظيماً لم يبلغه من قبل ، حيث حفل الخلفاء العشرة الأولـــون مـــن خلفـــاء العباسيين خاصة بالشعر والشعراء وراحوا يغدقـــون الأموال الطائلة على الشعراء ويعطونهم بسخاء وكرم كما راحوا يقربونهم إليهم ويصادقونهم ويعقدون لهم المجالس والمنتديات الأدبـــية لســـماع أشـــعارهم ومـــنحهم الجوائز على حسب إجادتهم. وشـــاركهم فى ذلك : الأمراء والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة من عرب وفرس .

وراح الفقهـــاء وعلمـــاء اللغة يحبذون الشعر الرصين الذى يحـــافظ على سلامة اللغة العربية وقواعدها وينهج نهج الشعر القديم مما جعل الشعراء يلتزمون ذلك النهج إرضاء للفقهاء والعلماء الذين كان بأيديهم رفع الشعراء أو الحط من شأنهم .

وأعـــان الفقهـــاء والعلماء على ذلك الخلفاء العباسيون الذين حـــافظوا على لغة القرآن الكريم وشجعوا على تعليمها والتمسك بها لغة رسمية وعلمية مما كان له الأثر فى تعليم الأعاجم-خاصة الفرس- للغة العربية لغة الدين والدولة .

وبقـيام الدولة العباسية انتقلت الزعامة الأدبية إلى بغداد عاصمة خلافـتهم حيـث أمها الأدباء والشعراء من كل مكان واتجهت إليها أفئدة الفنانيـن،خاصة لما تمتع به الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد العباسيون مـن عطاء جزيل ومنح ثمينة من مساميح بنى هاشم وأجاويد بنى برمك وبنى سهل وغيرهم " .

كمـا حفل الخلفاء العباسيون بالشعر والشعراء وعقدوا لهم مواسم سنوية يقعدون فيها للشعراء ويستمعون لقصائدهم ويمنحونهم الجوائز على مقـدار إجـادة الشاعر أو موافقة شعرهم لسياستهم، فضلا عن المجالس والمـناظرات الشعرية التى كان يعقدها العباسيون حتى يتبارى الشعراء أمامهم وشارك الخلفاءَ فى ذلك الوزراءُ والعمال والقواد ورؤساء الدواوين من الفرس وغيرهم حتى كان منهم شعراء وأدباء لا يقلون عن المتكسبين بالشعر .

مـن أجل هذا وغيره فقد بلغ الشعر فى هذا العصر مبلغا لم يبلغه بعده إلا عند المتنبى الذى أدرك هذا العصر وإن لم يكن هذا المبلغ هو كل مـا كـان يرجى للشعر العربى من الكمال وذلك لغلبة العنصر التركى والديلمى وتدخلهم فى كل كبيرة وصغيرة فى شئون الدولة بعد ذلك.

ومـع ذلـك فقد زاحم الأعاجم العرب فى مختلف الفنون والعلوم والآداب ونـبغ من الفرس وغيرهم من العجم كثير من العلماء والشعراء والأدباء وراح الشعراء الأعاجم يعرضون نفائس شعرهم ويفوزون بأثمن الجوائز وسمى هؤلاءً بالمولدين.

وقد ساعد على تقدم الشعر ورقيه بخلاف ما سبق هذه الحضارة وذاك الـــتقدم والرقى فى مختلف نواحى الحياة والعصر العباسى سياسياً واقتصــــادياً وثقافـــياً فضلاً عن الطبيعة الساحرة التى انتشرت فى ربوع الدولـــة المتحضـــرة فجال الشعراء فى الشعر جولات لم تتوافر سياسياً لأسلافهم ونقلوه من البادية على يد زعيم المولدين بشار بن برد وإخوانه من شعراء عصره .

وراح الشـــعراء يتفننون فى أغراض الشعر العربى بجوار النظم فـــى الأغراض الشعرية الموروثة من قبل مثل : المدح والفخر والهجاء والرثاء والشكوى والحكمة وما إلى ذلك من فنون الشعر الموروثة .

وقد استطاع الشعراء فى العصر العباسى الأول أن يرضوا أزواق الخلفـــاء والفقهاء والعلماء بالنظم فى الأغراض الموروثة والحفاظ على الأوضـــاع الموروثه فى إنشاء القصيدة فى بنائها على قافية واحدة ووزن واحد وابتدائها بالغزل والنسيب وذكر الديار وبكاء الأطلال ووصف الناقة والـــرحلة والصحراء ومشاهدها والتمهيد بذلك للغرض الأصلى من مدح أو فخـــر أو تهنـــئة أو هجـــاء الخ ، فضلا عن أنهم راحوا يعبرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم الذاتية متحللين من شكل القصيدة القديم إلا أن اللغة العربية الفصحى كانت لغة هذا وذاك.

وعلى الجملة فقد طرأت تغييرات وتطورات فى الشعر العربى فى العصـــر العباســـى الأول سواء كان ذلك فى الأغراض أو الأسلوب أو المعانى أو الوزن والقافية :

فمن حيث الأغراض :

نظم الشعراء فى الأغراض الشعرية التى نظم فيها الشعراء السابقون ولكنها تشكلت بشكل خاص فى العصر العباسى فضلاً عن الأغراض التى ابتدعها شعراء العباسيين مثل : الغزل بالمذكر والإكثار من شعر الزهد والإغراق فى وصف الخمر ورثاء المدن والحيوانات والطيور ، ووصف القصور والرياض والفلسفة ورثاء النفس ونظم القصص على لسان الحيوان ونظم قواعد الفقه والعلوم وغير ذلك .

ومن حيث الألفاظ والأسلوب :

فقد وجد أسلوب مولد جديد وهو أسلوب يعتمد على سلامة الذوق فى اختيار الألفاظ والتأنق فيها وعذوبة التراكيب واستحداث البديع والإكثار منه وترك الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف الخمر أو القصور أو الطبيعة والإكثار من التشبيه والاستعارة فى أشعارهم بجوار أسلوب: الجزالة والفخامة والقوة ونهج أسلوب القدماء .

إذن وجد فى أسلوب الشعر فى العصر العباسى الأول أسلوبان: أسلوب قديم موروث كان ينظم عليه الشعراء مدائحهم للخلفاء والوزراء والولاة وشعر الفخر والرثاء والطرد ، وأسلوب مولد نظموا عليه بقية أشعارهم .

وتبعاً لوجود عنصر العجم فى المجتمع العباسى فقد أدخلت فى الشعر كثير من الألفاظ الأعجمية كالفارسية والتركية والهندية واللاتينية وغيرها خاصة أسماء المآكل والملابس وآنية الشراب وغير ذلك .

ومن حيث المعانى :

فقــد استخدم الشعراء معانى أسلافهم إلا أَنهم عنوا بتوليدها ودقة التصــوير والتخييلات البديعة وتركيب التشبيهات والاستعارات واقتباس الأفكار الفلسفية وظهرت معانى وأفكار جديدة مخترعة جاء بها الشعراء مــن مخيلتهم تبعاً لثقافتهم ولوجود الحضارة والثقافة الجديدة التى وجدت فى العصر العباسى .

ومن حيث الأوزان والقوافى :

فقد نظم الشعراء العباسيون على بحور الشعر العربى المعروفة إلا أنهــم أكثروا من النظم على الأبحر القصيرة التى لم ينظم عليها السابقون إلا قلــيلاً فضــلا عــن استحداث أوزان جديدة ابتدعها شعراء العصر كالمســتطيل والممــتد وهمــا عكس : الطويل والمديد ، وظهور الشعر المزودج والدوبيت وأشهر ما اخترع فى هذا العصر من الشعر العامى : شعر الزجل"والمواليا"وأول من نظمه مولاة للبرامكة فى رثائهم .

***

وكان لهذا الازدهار والرقى فى عصر العباسيين الأول عوامل عديدة نجملها فيما يلى :

أولاً : عروبة الخلفاء العباسيين وثقافتهم العربية والأدبية الواسعة وحبهم للشعر ونقدهم له بل ونظمه أحيانا واطلاعهم على آداب وأشعار السابقين وحفظهم له وتملكم لناصية الأدب والشعر وتمكنهم من اللغة العربية ومقوماتها وعلومها المختلفة حتى لقد كان من الخلفاء العباسيين وأمراء بنى العباس من ينظم الشعر مثل : عيسى بن موسى بن أخى أبى العباس السفاح ومن شعره فى زينب محبوبته [1]:

زينب ما لى عنك من صبر	**وليس لى منك سوى الهجر**
وجهك والله إن شَفَّنى	**أحسن من شمس ومن بدر**
لو أبصر العاذل منك الذى	**أبصرته أسرع بالعُذْر**

وكان الخليفة المهدى يحفظ الشعر ويتمثل به فى مجلسه [2]، فضلاً عن أشعار كثيرة للمأمون وفضلاً عن الخليفة العباسى عبد الله بن المعتز الذى يعد من كبار شعراء العصر والشعر العربى كله وفضلاً عن إبراهيم بن المهدى وعُلية بنت المهدى وغيرهم من أبناء البيت العباسى .

وكان الوزراء والقواد العباسيون وكبار رجال دولتهم على درجة كبيرة من العلم والثقافة والأدب شعراً ونثراً وكان منهم من ينظم الشعر وينقده مثل: البرامكة وبنى سهل وعبد الله بن طاهر بن الحسين الذى تولى

---

(١) صـ ١٦٠٢ تجريد الأغانى القسم الثانى الجزء الأول.

(٢) ينظر تجريد الأغانى القسم الأول صـ ٣٧٨.

خراج مصر وضياعها أيام الخليفة المأمون ومن شعره يخاطبه :

نفســى فداءك والأعناق خاضعة للنائـــبات أبـــيًا غـــير مهتضـــم

إليك أقبلتُ من أرضٍ أقمتُ بهـــا حولَين بعدك فى شوقٍ وفى ألـــم

حتى آخر الأبيات(١) .

ومثل : الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وزير الخليفة المعتصم الذى رثاه بقوله (٢):

قـــد قلـــتُ إذْ غيَّــبوه وانصرفوا فـــى خـــير قـــبر لخـــير مدفون

اذْهـــب فنعم الحفيظ كنت على الدّ يـــنا ونعـــم المعيـــنُ فـــى الدين

لـــــــم يجيـــر الله أمـــةً فقدتُ مثلك إلا بمثـــل هـــــــــــارون

ثانياً : تشجيع الخلفاء العباسيين وأمرائهم ووزرائهم وكبار رجال دولـــتهم للشعر والشعراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم ومنحهم الهبات والجوائـــز الثميـــنة وتقريبهم من مجالسهم بل واتخاذ كثير منهم شعراء خاصة ومصادقتهم .

وتزخـــر الكتـــب والمصـــادر بالكثير من أمثلة هذا العطاء وهذه الجوائز وتفيض بها هذه الكتب ولا يوجد هناك خليفة أو أمير أو وزير أو كبير من رجالات الدولة العباسية إلا وأعطى الشعراء وأغدق عليهم ومن هذا القبيل ما أورده صاحب الأغانى عن الخليفة المهدى حيث كان يدخل علـــيه الشعراء فى كل عام مرة ينشدونه فمثل بين يديه جمع من الشعراء

(١) صـــ ١٣٧٩ تجريد الأغانى.

(٢) صـــ ٢٠٩ نفس المصدر .

ومعهم مروان بن أبى حفصة وأنشده قصيدته التى يقول فيها :

طرقـتك زائـرةً فحـى خـيالها ‏ ‏ ‏ ‏ بيضـاء تخلـط بالحـياء دَلالها

قادت فؤادك فاستقاد ، ومثلهـا ‏ ‏ ‏ ‏ قاد القلوب إلى الصِّبا فأمالهـا

فأنصت المهدى لها حتى بلغ مروان إلى قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها ‏ ‏ ‏ ‏ بـأكفكم أو تسـترون هِلالَهـا

أو تجحـدون مقالـة مـن ربكم ‏ ‏ ‏ ‏ جـبريل بلّغهـا النـبىَّ فقالهـا

شهدت من الأنفال آخـر آيـة ‏ ‏ ‏ ‏ بتراثهـم فأردتمُ إبطالهـا

قـال : فرأيـت المهدى وقد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع ، ثم قال : كم هى ؟ قال : مائة بيت . فأمر له بمائة ألف درهم فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر فى أيام بنى العباس "[1].

ومـن عطائه أيضا عطاؤه لابن المولى بقصيدته التى يقول فيها يمدحه :

تطوى البلادَ إلـى جمٍّ منافعُه ‏ ‏ ‏ ‏ فعّـالِ خير لفعل الخير عوّاد

فأمـر له بعشـرة آلاف درهـم وكسـوة وأن يجرى له ولعياله مايكفيهم "[2].

---

(١) صـ ١١٤٢ تجريد الأغانى.

(٢) صـ ٤٢٥ تجريد الأغانى.

ومـــن عطائـــه كذلك عطاؤه لأبى العتاهية حينما عزاه فى إحدى بناته :

مـــا للجديـــد لا يـــبلى اختلافهما … وكـــل غـــض جديـــد فيهما بالى

يامَـــنْ سلا عن حبيب بعد ميتته … كم بعد موتك أيضاً من فتى سالى

لا تلعبَـــنَّ بـــك الدنيا وأنت ترى … ماشـــئت مـــن عبر فيها وأمثال

ما حيلة المرء إلاّ كل صالحـــــة … أو لا فما حيلة فيــــــه لمحتال

فقـــال : لـــه أحســـنت ويحك ، وأصبت ما فى نفسى ووعظت فأوجزت ثم أمر له لكل بيت بألف درهم "[1].

ومن صور العطاء للخلفاء ما جادت به يد الخليفة هارون الرشيد – الـــذى يعد ويحق جوهرة الخلفاء العباسيين ودرته الكبرى – للشعراء وتشـــجيعهم علـــى نظم الشعر ومن ذلك عطاؤه للشاعر منصور النمرى بالرغم من أنه كان رافضيا [2] وذلك حينما أنشده :

بـــنى حَســـن ورهط بنى حسين … علـــيكم بالســـداد مـــن الأمـــور

فقد ذُقتم قِـــراع بنـــــى أبيكم … غَـــداة الروع بالبيض الذكـــور

إلى آخر الأبيات فأمر له بثلاثين ألف درهم " [3].

---

(1) صـــ ٤٩٠ تجريد الأغانى .

(2) الـــرفض : التشيع لآل علي . والروافض : فرقة شيعية بايعوا يزيد بن علي ثم طلبو منه أن يتبرأ من الشيخين فأبى ، فتركوه ورفضوه .

(3) صـــ ١٤٨٣ تجريد الأغانى .

ومـــن عطاء الرشيد للشعراء عطاؤه لأشجع السلمى حينما مدحه فى مجلس للشعراء فى العيد وبعد أن انصرف من غزاة هرقلة بقوله:

لازلـــت تنشـــر أعـــياداً وتطويها ... تمضـــى بهـــا لك أيام وتمضيها

ولاتقضَّـــت بـــك الدنيا ولا برحت ... يطـــوى لـــك الدهرُ أياماً وتفنيها

وليهـــنك الفـــتح والأيـــام مقبلة ... إلـــيك بالنصـــر معقوداً نواصيها

أمســـتْ هِرقلة ترمى من جوانبها ... وناصـــر الله والإســـلام يرمـــيها

ماروعى الدين والدنيا على قدم ... بمثل هارون راعيـــه وراعيها

فأمر له بألف دينار وقال : لا ينشدنى أحد بعده ، فقال أشجع: والله لأمره بألا ينشده أحد بعدى أحبَّ إلىّ من صلته "[١].

وجاء محمد بن أبى محمد اليزيدى إلى باب المأمون فاستأذن فقال الحاجب : قد أخذ دواء وأمرنى ألا أذن لأحد قال : أفأمرك ألا توصل إليه رقعة ؟ قال : لا. فدفع إليه رقعة فيها :

هديـــتى التحـــية للإمـــام ... إمـــام العـــدل والملـــك الهمـــام

لأنـــى لـــو بذلـــت لـــك حـــياتى ... ومـــا أهـــوى لقـــلاً للإمـــام

أراك مـــن الـــدواء الله نفعـــاً ... وعاقـــية تكـــون إلـــى تمـــام

وأعقـــبك الســـلامة مـــنه رب ... يـــريك ســـلامة فـــى كـــل عـــام

أتأذن فى السلام بـــــلا كلام ... ســـــوى تقبيل كفـــك والسلام

فأوصلها إليك وخرج فأذن له فدخل وسلم وحملت معه ألف دينار"[٢].

---

(١) صـــ ١٩٥٨ – ١٩٥٩ تجريد الأغانى .

(٢) صـــ ٢١٧١ تجريد الأغانى.

ولمـــا فـــتح المعتصم عمَّورية امتدحه الشعراء بذلك وذكروا حســن فعلــه وكـــان مــن أحسن ما مدح به يومئذ قول"الحسين بن الضحاك :

قل للألى صرفوا الوجوه عن الهدى	متعســـفين تعسُّـــف المُـــرَّاق
إنـــى أحذركـــم بـــوادر ضـــيغم	دَرِب بحطـــم موائـــل الأعـــناق
متأهِّـــب لا يســـتفزُّ جـــنانُه	زجِـلُ الـرعود ولامـعُ الإبراق
لـــم يـــبقَ مـــنْ مُتَعرِّمين توثبوا	بالشـــام غـــيرُ جمـــاجم أفْـــلاق
حـــتى إذا أمَّ الحصـــون مُـــنازلاً	والمـــوت بيـــن ترائـــب وتراقى
هـــرت بطارقُهـــا هريـــر قساور	بُدِهَـــتْ بأكْـــره مـــنظر ومـــذاق
ثـــم اسْـتكانتْ للحصـــار ملوكُها	ذُلا ونـــاط حُلوقَهـــا بخـــناق
هربت وأسْلمت الصليب حُماتهـــا	لم يبـــق غير حُشاشة الأرماق

فأمـــر المعتصـــم لكل بيت بألف درهم وقال له : أنت تعلم ياحســين أن هذا أكثر ما مدحنى به مادح فى دولتنا . فقبل الأرض بيـن يديه وشكره وحمل المال معه "[1] ، ولا يخفى عطاء المعتصم لأبـــى تمـــام واتخـــاذه شاعراً خاصاً به ملازماً له فى سلمه وحربه وإغداقه عليه .

كذلـــك كـــان شـــأن الواثـــق ، فحينما دخل عليه الحسين بن الضـــحاك مهنئاً له بالخلافة مادحاً له معزياً فى موت والده المعتصم بقصيدته التى أولها :

---

(١) صـــ ٨٥٦ تجريد الأغانى . والمتعرمون: ذو العرامة والشراسة .

ألـــم يَرُع الإسلامَ موتُ نصيره   بلى حَقَّ لأن يرتاع مَنْ مات ناصره

أمر له بأن يعطى لكل بيت ألف درهم وأعجبته الأبيات وأمر أن يصنع فيها عدة ألحان " (١).

ولم يقتصر العطاء وإغداق الأموال للشعراء على الخلفاء بل تبعهم فى ذلك الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة بل وكبار الأغنياء فـيها ، بـل كـان منهم الشعراء والأدباء أمثال البرامكة وأبى دلف العجلى ومحمد بن الزيات وغيرهم .

فمـن شعر أبى دُلف العِجْلى – الذى بلغ من الشجاعة وعلو المنزلة عند الخلفاء وحسن الأدب وجودة الشعر – قوله :

بنفسـى ياجـبانُ وأنـت مـنّى   مكـان الـروح من جسد الجبان

ولـو أنـىَّ أقـول مكـان نفسى   لخفْـتُ علـيك بـادرة الـزمان

لإقْدامى إذا ما الخيـلُ حامتْ   وهاب كُماتُها حَرَّ الطعـان

وقد وفد أبو تمام على أبى دلف العجلى فأنشده قصيدته :

على مثلها من أربُـع وملاعب   أذيلت مصونات الدموع السواكب

فلما بلغ إلى قوله :

إذا افـتخرت يومـاً تميم بقوسها   وزادت علـى وطّـدت من مناقب

فأنتم بذى قار أمالت سيوفكـم   عروش الذين استرهـنوا قوس حاجب

فقال أبو دلف : يا معشر ربيعة ما مدحتم بمثل هذا الشعر فما عـندكم لقائلـه ؟ فبادروه بمطارفهم يرمونها إليه ، فقال أبو دلف قد

---

(١) صـ ٨٥٧ تجريد الأغانى .

قـبلها وأعـاركم لبسها وسأنوب عنكم فى ثوابه ، تِّمْ القصيدة يا أبا تمـام . فـتممها : فأمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ما هى بإزاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا .

ثم قال له : أنشدنى فى محمد بن حميد قولك فيه :

وماماتَ حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السُمْرُ

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده ... إلـيه الحفـاظ المُرُّ والخلق الوعر

فأثبـت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت إخمصك الحشر

غـدا غـدوة والحمدُ حشو ثيابه ... فلـم ينصـرف إلا وأكفانـه الأجْرُ

كـأن بـنى نهـبان يوم مصابه ... نجـوم سـماء خرَّ من بينها البُدْرُ

يُعَزُّون عن ثاوٍ تُعَزَّى بـه العـُلا ... ويبكى عليه البأس والجود والشعر

فأنشده إياها ، فقال : والله لوددت أنها فىَّ : فقال : بلى أفدى الأمـير بنفسـى وأهلى وأكون المقدم قبله فقال له : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو مثله " .

وقصد أبو تمام خالد بن يزيد بن مزْيد وهو بأرمينية فامتدحه فأعطاه عشرة آلاف درهم ونفقه لسفره ثم قال له : ما فعل المال ؟ فقال له :

علمـنى جـودك السـماحَ فمـا ... أبقيـت شـيئاً علـىَّ من صلتك

مـا مـرَّ شـهر حتى سمحت به ... كـأنَّ لـى قـدرة كمقدرتـك

تـنفق فـى الـيوم بالهـبات و ... فـى الساعة ما تجتنبه فى سنتك

فلست أدرى من أين تنفق لـو ... لا أن ربىّ يُمـد فـى هبتك

فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

ووفد أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر بن الحسين وكان واليا علـى خراسـان فاجـتمع الشعراء به وسألوه أن ينشدهم فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غداً فلما دخل على عبد الله بن طاهر أنشده:

هُـنّ عوادى يوسف وصواحِبُهْ فعزْما فقدماً أدرك السؤل صاحبُه

إلـى آخر الأبيات ... فصاح الشعراء بعبد الله بن طاهر : ما يستحـق هذا الشعر غير الأمير ولما فرغ أبو تمام من قصيدته نثر عليه ألف دينار " .

وهناك الكثير والكثير من هذه النماذج التى تروى عن عطاء وبذخ الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد فى عطاء الشعراء .

ولـم يقتصر الأمر على هؤلاء الرجال من الخلفاء والوزراء وغـيرهم بـل ساهمت المرأة العباسية فى عطاء الشعراء والإغداق عليهم ، فقد دخل أشجع السلمى على محمد الأمين حين أجلس مجلس الأدب للتعلـيم وهـو ابن أربع سنين فقال أشجع فى حضرة الأمين وأمه زبيدة بنت جعفر المنصور :

ملـك أبـوه وأمـه مـن نـبعة فـيها سـراج الأمـة الوهّـاج
شربت بمكة فى ربى بطائحهـا ماءَ النبوّة ليس فيـه مزاج

فأمرت له زبيدة بمائة ألف درهم".

ثالثاً : عقد الخلفاء للندوات والمجالس الأدبية للشعراء والحكم بيـــنهم ونقدهم للشعر وتقويمه فى جمع من الأدباء والشعراء والنقاد وعلمـــاء اللغة حتى أصبحت هذه المجالس الأدبية من معالم العصر العباســـى بل وطلب الخلفاء من الشعراء أن ينشدوا الأشعار لهم أو لغـــيرهم من الشعراء ، وذلك مثل مجلس المنصور أبى جعفر الذى طلـــب فيه من الربيع أن ينشده قول مطيع بن إياس فى مرثية يحيى ابن زياد فأنشده:

يـــا أهلـــى ابكـــوا لقلـــبى القرِح ... وللدمـــوع الـــذوارف السُـــفح

راحـــوا بيحيِ ولو تطاوعني الـــ ... أقـــدار لـــم يبـــتكر ولـــم يَـــرُح

ياخـــيرَ من يُحسن البكاءُ له الـــ ... يـــوم ومـــن كـــان أمـــس للمدَحَ

أعقبْت حزناً من السرور كمـــا ... أدلْت مكروهنا مـــــن الفرح[1]

فبكى المنصور وقال :، صاحب هذا القبر أحق بهذا الشعر ".

رابعاً : ثقافـــة الشـــعراء الواسعة وتمكنهم من اللغة العربية وإجادتهـــا واطلاعهم الواسع على الأداب العربية القديمة حتى هؤلاء الشعراء من ذوى الأصول غير العربية ، فقد تعلم هؤلاء العجم اللغة العربية وأتقنوها وتمكنوا منها وأتقنوا علومها ومعارفها .

خامساً : عظم مكانة الأدباء والشعراء ورفع مكانتهم وتقليدهم للمناصـــب العليا فى الدولة خاصة منصب الوزارة التى تقلدها كثير مـــن الأدباء والشعراء فى العصر العباسى الأول:كأبى دلف ومحمد

---

(١) أدلت : أى جعلت المكروه يغلب على الفرح .

ابن الزيات وغيرهما ، فضلاً عن أن الشعر كان مصدر دخل عظيم للشعراء وعاشوا في ثراء وترف به .

سادساً : عظم الثروة التى تمتع بها العصر العباسى الأول وتعدد مصادر الدخل للدولة العباسية ، وهذا الثراء العظيم الذى عاش فيه الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد والأدباء والشعراء ، كل هذا ساعد العباسيين على إعطائهم للشعراء دون حساب .

سابعاً : تعدد عناصر المجتمع العباسى من : عرب وفرس وأتراك وتنوع الفرق والمذاهب الدينية والسياسية من : سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة ومرجئة وغيرها .. حيث راحت كل طائفة وكل جنس وكل مذهب منها تتخذ من الأدب والشعر وسيلة لنشر عقيدتها ومبادئها وتقاليد وعادات جنسها ، فظهر الشعر المذهبى والدينى والشعوبى واضحاً جلياً فى العصر العباسى بين العرب والفرس وبين السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة والمرجئة ، وتلون الشعر فى هذا العصر واصطبغ بهذا الخلاف العرقى والدينى والمذهبى والسياسى .

ثامناً : وجود تيارين مضادين فى العصر العباسى الأول : تيار اللهو والمجون والتهتك والخلاعة بانتشار الأديرة والحانات وأماكن اللهو والمجاهرة بالفسق وشرب الخمر وكثرة المغنين والمغنيات وكثرة الجوارى ووصف ذلك كله وانعكاسه على الشعراء.فكان شعر الخمر والغزل خاصة الماجن وشعر الزندقة

والتهتك ... وتيار الزهد والتصوف الذى كان انعكاساً مباشراً للتيار الأول ومضـــاداً له فوجـــد شـــعر الزهد والتصوف والعشق الإلهى والدعوة إلى مكارم الأخلاق وفضلاً عن الحرية الواسعة التى أعطيت للشعب دون حساب .

تاسعاً : اتســـاع أطراف الدولة العباسية وتنوع طبيعتها وما تمتعت به الدولة من أبهة وفخامة فى بنيانها وقصورها وحدائقها. أثر كل هذا فى الشعر العباسى خاصة فى شعر الطبيعة حيث انعكس كل ذلـــك فى شعر الشعراء وتناولهم لطبيعة بلادهم وما استجد منها فى الطبيعة الحية والصامتة .

فهـــذه الطبـــيعة فى العراق وفارس وخراسان ومصر والشام والمغرب وغيرها تتطلب مايناسبها من الشعر الواصف ليظهر جمال رياضها وروعة أنهارها وعظمة قصورها .

عاشراً : تطور الحياة وتغيرها والرقى الحضارى الذى وصل إلـــيه المجـــتمع العباسى وانعكاس ذلك على خيال الشعراء ومعانيهم وموضـــوعاتهم ، فضلاً عن الامتزاج فى الدماء والعادات والأفكار بين أبناء الأمة العباسية .

حادى عشر : كـــثرة الحـــروب والمعـــارك والفتوحات التى خاضـــتها الدولة العباسية ضد جيوش الروم والكفر والإلحاد خارجيا وبين الدولة العباسية والخارجين عليها من : زنج وقرامطة وخوارج وشـــيعة وغـــيرهم داخليا. وهذه الصراعات التى قامت بين الخلفاء

العباسـيين أنفسهم – خاصة الصراع الذى دار بين الأمين والمأمون – كل ذلك قد انعكس على الأدب والشعر ، فكثر شعر المدح للخلفاء والـوزراء والقـواد للإشـادة بهم وتصوير انتصارهم على أعدائهم ونشر سياستهم فى الداخل والخارج.كما راح هؤلاء الشعراء يصفون المعـارك والحروب فى أشعارهم مبتهجين للنصر محمسين الخلفاء والـوزراء والقـواد على حرب الأعداء وتأديبهم فى شعر حماسى ملحمى مثلما جاء فى شعر مسلم بن الوليد وأبى تمام وغيرهما .

كما أثرت هذه المعارك والحروب فى شعر الرثاء فى العصر العباسـى حيث كثرت المراثى السياسية للشهداء من القواد والجنود الذين سقطوا فى ساحات المعارك،وظهر شعر رثاء المدن لأول مرة فـى هـذا العصـر وتجلى فى رثاء الشعراء لكل من: مدينة بغداد ومديـنة البصرة ، كذلك أثرت، هذه الحروب والصراعات فى إشعال شـعر الهجـاء السياسـى حيث راح الشعراء يصبون جام غضبهم وسخطهم على الأعداء فى شعرهم .

ثانى عشر : وجود المكتبات الضخمة التى ضمت آلاف الكتب المخـتلفة والمتـنوعة والتى كانت منتشرة فى ربوع الدولة العباسية وكـثرة المسـاجد والمـدارس الـتى وجدت فى هذا العصر – وقد تعرضنا بالحديث عن المكتبات والمدارس والمساجد عند الحديث عن الحالة العلمية والثقافية .

ثالث عشر : حـــركة الترجمة الواسعة التى قامت فى العصر العباســـى الأول وشملت الكثير من الكتب الأجنبية خاصة : الفارسية فـــى الأدب والفلســـفة والمنطق والرياضة والنجوم والتاريخ والطب والصناعة والزراعة. ونقل العباسيون إلى اللغة العربية معظم ما كان معـــروفاً ولـــم يـــتركوا لســـاناً من ألسن الأمم المعروفة حينذاك إلا وترجموه .

رابع عشر : فضلاً عما ورثته الدولة العباسية من تراث ضخم فـــى مجـــال الأدب والشـــعر والعلوم المختلفة من العصور السابقة وفضـــلاً عـــن هـــذا الجهد الكبير والنهضة العلمية فى تدوين العلوم المختلفة وظهور المجموعات والمصادر الضخمة فى مختلف العلوم العربـــية خاصـــة الأدبية مثل : "**طبقات فحول الشعراء** " لابن سلام و"**الكـــامل فـــى اللغة والأدب** " للمبرد وأهم مجموعتين للشعر القديم ألفـــتا فـــى العصر العباسى الأول : " **المفضـــليات**" للمفضل الضبى و"**الأصمعيات**" للأصمعى. فضلاً عن كثير من المؤلفات الأخرى التى جمعـــت الشـــعر العـــربى كشعر الحماسة لأبى تمام وشعر الحماسة للبحترى وطبقات الشعراء لابن المعتز .

وهكـــذا ازدهـــر الشـــعر العربى ازدهاراً كبيراً فى العصر العباسى الأول بسبب هذه العوامل وغيرها من العوامل التى ساعدت علـــى نهوضه وتطوره ، فقد سخرت الدولة العباسية كل ما تستطيع

فى سبيل هذه النهضة الشعرية حيث كان للشعر سحره وصولته عند خلفـــاء الدولة وولايتها ووزرائها وعنى العباسيون به عناية كبيرة ، "فكـــم من شعر فى العصر العباسى وضع السيف فى الرقاب كما فعـــل شـــعر سديف بالسفاح فحمله على قتل بنى أمية وكم من شعر رفـــع السيف عن الرقاب كما فعل ابن طوق وقد حكم عليه بالإعدام فقـــال للرشـــيد شـــعراً فعفا عنه وقد رفع الرشيد السيف عن ربيعة وأحســـن إلـــيهم بعد سماعه أبياتاً قالها منصور النمرى استعطفه بها فأمر بكف السيف عن ربيعة لأجله "[١].

* * *

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجى زيدان .

أغراض الشعر العباسي:

نظم الشعراء العباسيون فى كل الأغراض الشعرية التى نظم فيها الشعراء السابقون وقالوا فى كل الأغراض التى قال فيها الجاهليون والإسلاميون والأمويون من قبل ، فنظموا فى المدح والهجاء والغزل والرثاء والفخر والعتاب والوصف والطبيعة والشعر السياسى وغير ذلك من الأغراض الشعرية ولكنها تشكلت بشكل خاص فى العصر العباسى الأول أو كثر استعمالها فيه وتوسعوا فى هذه الأغراض وأمدوها بمعان جديدة وصور حديثة أوحت بهما حياتهم الجديدة ، كما نظموا فى أغراض ابتدعوها ابتداعاً واستحدثوها لأول مرة ولم يقل فيها السابقون .

فبقيام الدولة العباسية راح الشعر يتخفف شيئاً فشيئاً من بعض هذه الفنون لمجافاتها روح العصر العباسى المتحضر أو وضع عليها طابع العصر الجديد فبدت وكأنها فنون جديدة ، ونرى هذا العصر وهو إذ يتخفف فى بعض الأغراض القديمة يخترع أغراضا أخرى جديدة ، وأخذ هذا التحول فى فنون الشعر فى بطء وريث فى أوائل العصر للظروف السياسية التى عاشتها الدولة فى أول أمرها وللحفاظ على القديم الموروث ما أمكن حتى إذا ما انتهت هذه الظروف وزالت هذه الأسباب ساد التحول فى سرعة وجرأة وصراحة إلى غايته التى تدافع إليها المجتمع الجديد وتلاقت

وامتزجــت عــندها ثقافــات الأمم المختلفة التى تكون منها المجتمع العباسى :

فقــد تطــور شــعر المدح:– وهو الغرض الأكبر فى الشعر العباســى – لأنــه كــان بمثابة الجريدة الرسمية أو وسيلة الإعلام الرســمية للدولــة – سواء كان مدحاً فردياً أو مدحاً قومياً صور فيه الــبطولة الإسلامية فى شخص الخليفة أو الوزير أو القائد ، فلم يتقيد شــعراء العصر ببدء القصيدة بالأطلال والغزل وتصوير الرحلة إلى الممدوح بل نرى كثيراً من قصائد المدح وقد بدئت بمقدمات أخرى : كوصــف الخمر أو الرياض أو الحكمة وغيرها ، وذلك كقول مسلم ابن الوليد فى بدء مدحته بوصف الخمر :

أديرى علىَّ الراح ساقية الخمــر ولا تسأليني واسألي الناس عن أمرى

وكقول أبى نواس فى مدحته يبدؤها بوصف الخمر :

دع عنك لومى فإن اللوم إغــراء وداوني بالتى كانــت هــى الداء

صفراء لاتنزل الأحزان ساحتهــا من مســـه نصب مسته سراءُ

وكقصــيدة أبــى تمــام فى مدح المعتصم حيث يبدأ قصيدته بمقدمة التنجيم :

السيف أصدق أنباء مـــن الكتب فى حده الحد بين الجــد واللعب

وكقوله فى مدحته يبدؤها بوصف الطبيعة :

رقت حواشى الدهــر فهى تمرمر وغدا الثــرى فى حليه يتكسر

وأحياناً يأتى الشعراء بقصيدة المدح دون مقدمة من المقدمات.

وأحياناً أخرى يستهل الشعراء مدائحهم بالبكاء على الأطلال :

كقول أبى نواس – وهو الذى ثار على المقدمة الطللية وأعلن الحرب عليها ودعا الشعراء إلى أن يتركوها ويستبدلوها بوصف الخمر – كقوله فى مدح الأمين :

وإذا المطىُّ بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام

وأحياناً تأتى قصيدة المدح دون مقدمات .

كذلك تطور غرض الهجاء فى العصر العباسى واستبدل شعراء العصر هذا التنابز بالألقاب والاتهام بالبخل وخسة الأصل التى صورت فى هجاء العصر الأموى ، خاصة بين الفرزدق وجرير وما كان بينهما من مناقضات ، إلى سباب مقذع وانتهاك للحرمات مثل قول حماد عجرد يهجو بشارا:

وأعمى يشبه القردَ إذا ما عمى القردُ

دنيءٌ لم يرح يوماً إلى مجد ولم يَغْدُ

وفى الغزل : طغى الغزل الماجن والصريح فى العصر العباسى بينما كان الغزل العفيف والعذرى هو السائد فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى .

وفى الفخر: ظلت المعانى القديمة من الفخر بالأمجاد العربية والانتصارات الرائعة وزيد عليها فخر الشعراء من ذوى الأصول الأعجمية بأمجادهم ومآثرهم على العرب وهو ما يعرف بالشعوبية .

كذلك من الأغراض التى تشكلت بشكل خاص أو كثر

استعماله فيها : استعماله فى العصبية بين العرب والعجم كما هو فى شعر الشعوبية ، واستعماله فى السياسة بين : الشيعة العلوية والشيعة العباسية واستعماله فى سياسة الدولة العباسية فى إيثارها الفرس على العــرب وفى توليتهم مقاليد أمور الدولة وأعلى المناصب فيها بينما حرم العرب من ذلك إلا قليلاً .

كذلــك تنوع الوصف وتشكل بأشكال عدة : كوصف القصور والبســاتين ومجــالس اللهو والآثار ووصف السفن ووصف الطبيعة وغيرها .

كذلــك زادت نــزعة المجــون والخلاعــة إلى حد البشاعة وبصــورة لــم يسبق لها مثيل من قبل كما هو عند عصابة المجان مثل: والبة وسلم الخاسر وأبى نواس وأمثالهم .

كذلك زادت نزعة استعمال الشعر فى الحكمة والمثل عما كان معــروفاً مــن قبل ، فقد كان شعر الحكمة سابقاً يأتى خلال القصيدة ولكــنه فى العصر العباسى وجدت المقطوعة الخاصة وزاد الشعراء كثــيراً مــن الحكم التى اخترعوها من عند أنفسهم ويتجلى ذلك فى شعر صالح بن عبد القدوس وأبى تمام .

أمــا **الأغراض الجديدة** والموضوعات التى ابتدعها الشعراء العباسيون ولم يسبقهم أحد إليها فتتجلى فى :

١- الغزل بالمذكر : **حيث لم يعرفه العرب من قبل وكان من صــنيع الشــعراء العباســيين خاصــة الشعراء المشهورين بالفسق**

والمجون مثل أبى نواس والحسين بن الضحاك وغيرهما بل نظم فيه معظم الشعراء حينئذ وظهور هذا الغرض يرجع إلى ظاهرة اجتماعية انطلقت من نفوس الموالى للاستمتاع بكل صنوف المتع وقدوة هؤلاء : حماد عجرد وبشار وحماد الراوية وأبى نواس وحسين بن الضحاك ومسلم بن الوليد وسلم الخاسرو والبة بن الحباب" ويسمى هذا الغزل بالغزل فى الغلمان .

فكان هذا الغزل نتيجة طبيعية للغنى والفراغ الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء المجان وشيوع الفجر وفساد الأخلاق ورقة الدين والزندقة ، فكان هذا اللون من الغزل وصمة عار فى جبين الأدب العربى واللغة العربية القويمة .

٢- الغلو والإغراق فى وصف الخمر : حقا لقد وصف الجاهليون الخمر كما هو معروف عند الأعشى ووصف الإسلاميون الخمر فى عصر بنى أمية كما هو عند الوليد بن يزيد وأبى الهندى ولكن الشعراء العباسيين زادوا فى وصفها وأغرموا بها وأحبوها وعشقوها حيث انتشر شربها وكانت لها مجالس خاصة بها وراح الشعراء العباسيون يكثرون من وصفها ويجاهرون بالإغراق فى وصفها واستقصاء كل ما يتعلق بها بصورة لم يكن لها مثيل من قبل لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، وراح الشعراء يصفونها فى دنها وفى كأسها وفى يد الساقى حيث لم يترك هؤلاء الشعراء حالا من أحوالها إلا استقصوه فى عناية وعن تجربة خاصة وكان أكثر من

أغــرق فى ذلك وإمام وصف الخمرة هو الحسن بن هانئ وهو الذى قــاد الــزمام وراح يدعــو الشعراء إلى وصف الخمر والاستعاضة بوصفها عن المقدمة الطللية ، وله فيها قصائد كثيرة رائعة لم يصل إلى روعتها أى شاعر أغرم بهذا اللون من الشعر ومن شعره فيها :

دع عنك لومى فإن اللوم إغــراء	**وداونى بالتى كانــــت هـــى الداء**
صفراء لاتنزل الأحزان ساحتهــا	**من مســـــه نصب مسته سراءُ**
رقــت عــن الماء حتى مايلائمها	**لطافــة ، وجفــا عن شكلها الماء**
فلــو مزجــت بها نورا لمازجها	**حــتى تولــد أنــوار وأضـــواء**
دارت علــى فتية دان الزمان لهم	**فمــا يصيبهم إلا بمــا شــاءوا**
لتلك أبكــــى ولا أبكى لمنزلــة	**كانت تحل بهـــــا هند وأسمــاء**

" وقــد بلغت حدة هذه الموجة الماجنة غايتها فى عهد الأمين حيث حول قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفا للخمر والمجون واتخذ أبا نواس نديماً له .

٣- **الــزندقة** : حيث وجد فى العصر العباسى طائفة جهرت بالزندقة وكان منهم كثير من الشعراء والأدباء مثل :

بشــار بــن برد وحفص بن أبى وردة ويونس بن أبى فروة وعلــى بــن الخلــيل وحماد الراوية وابن الزبرقان وصالح بن عبد القــدوس وأبــان اللاحقــى وعمــارة بن حزم وغيرهم حيث كانوا يجــتمعون على الشراب ويقولون الشعر الخارج على الإسلام وراح هــؤلاء يــتخذون من الشعر وسيلة من وسائل الإعداد النفسى لقبول

آرائهـم المـنحرفة والحنين إلى ماكانوا يعبدون والجهر بمعتقداتهم الفاسدة التى تخالف الإسلام وتصادم تعاليمه بل والتى يفضلونها على الإسلام .

٤- **الـزهد والتصوف** :إذا كان فن الزهد من الفنون القديمة التى عرفها الشعر العربى فإنه كان فى العصر العباسى فنا جديداً مبتكراً لأنـه كان فى الماضى مقتصراً على الأشعار التى تذكر بالآخرة وتهون مـن شـأن الدنيا وتذكر بالموت والفناء أما فى العصر العباسى فقد كان نتيجة طبيعية مضادة لتيار الفساد والزندقة الذى شاع فى هذا العصر وقد نظـم هـذا اللـون من الشعر شعراء امتلأت نفوسهم بلذات الحس وقاد الهـوى زمـامهم فعرفوا اللذات فى مختلف أشكالها ولما أظمأتهم كأس الشـهوات وتملكهـم القلق والحيرة فى دنيا الرذيلة اشتاقوا إلى الرى من حـياض الـزهد وعرفوا الأمن والسعادة فى إقبالهم على الله مثل : أبى العتاهية وأبى نواس ومحمد بن حازم الباهلى وغيرهم .

وقد انتشر شعر الزهد فى العصر العباسى وكان أكثر اتصالاً بحـياة الجماهـير مـن شعر الخمر والمجون وراح هؤلاء الشعراء يزهدون الناس عن متع الدنيا وعن الرذائل والإقبال على الله بالتقوى والعمل الصالح .

يقول أبو نواس :

ألا رب وجـه فـى التراب عتيق	**ويـارب حُسْـن فى التراب رقيق**
فقـل لقريـب الـدار إنك راحل	**إلـى مـنزل نـائى المحل سحيق**

ومـــا الناس إلا هالك وابن هالك	وذو نســـب فـــى الهالكيـــن عريق
إذا امتحن الدنيـــــا لبيب تكشفت	له عن عـــــــدو فى ثياب صديق

وكان أبو العتاهية هو إمام شعر الزهد فى العصر العباسى الأول وتابعـــه آخرون ونظموا فى الزهد قصائد لا تقل فى الصناعة عن شعر أبى العتاهية ولكنهم لم يكونوا مخلصين فى شعرهم كما هو شأن أبى العتاهية وإنما نظموها من قبيل الإظهار للمقدرة فى صناعة الشعر كما هو الحال عند أبى نواس ومسلم بن الوليد وغيرهما .

ومن شعر أبى العتاهية فى الزهد قوله :

ياأيهـــا الحـــىّ الـــذى هـــو ميت	أفنيـــت عمـــرك فى التعلل والمنى
أمـــا المشـــيب فقد كساك رداءه	وابـــتز عـــن كتفـــيك أردية الصبا
ولقـــد مضى القرن الذين عهدتهم	لســـبيلهم ولتلحقـــن بمـــن مضى
ســـاعات لـــيلك والـــنهار كلاهما	رســـل إلـــيك وهن يسرعن الخطى
يـــا ســـاكن الدنـــيا أمنت زوالها	ولقـــد تـــرىَ الأيـــام دائرة الرحى
ولكـــم أبـــاد الدهـــر من متحصن	فى رأس أرعن شاهق صعب الذرى
أين الألى شادوا الحصون وجندوا	فـــيها الجـــنود تعـــززاً أين الألى؟
وذوو المـــنابر والعساكر والدسا	كـــر والحضـــائر والمدائن والقرى
وذوو المواكـــب والكتائب والنجا	ئب والمراتب والمناصب فى العلى
أفناهم ملك الملوك فأصبحـــــوا	ما منهم أحد يحس ولا يـــــرى

فكـــان الموضوع الذى يتصل بالعامة حقاً هو الزهد وما نشأ عـــنه مـــن التصـــوف ، وإذا كانت الحانات والأديرة وأماكن اللهو

والفســق تكــتظ بالفاسقين والماجنين والزنادقة فعلى الجانب الآخر كانــت المساجد تكتظ بالفقهاء والمحدثين والعباد والمتصوفة والنساك الذين رفضوا الدنيا وأقبلوا على الله بقلوب خالصة.

ولقــد كــثر شعر الزهد فى العصر العباسى الأول حتى اتخذ أحياناً مقدمة لقصائد المدح مثل قول ابن الجهم :

وعاقــبة الصــبر الجميل جميلة   وأفضــل أخــلاق الرجال التفضُّلُ

ومــا المــال إلا حسرة إن تركته   وغــنمٌ إذا قدمــته مــتعجِّلُ

وللخــير أهــل يسـعدون بفعله   وللــناس أحــوال بهــم تتــنقَّلُ

ولله فينــا علْمُ غيب وإنمــا   يوفق منــا مــن يشاءُ ويخذُلُ

" وأخــذ التصوف ينمو فى المائة الثانية من العصر العباسى واســتقل عن الزهد استقلالاً تاماً ، حيث راح أصحابه يتحدثون عن الحب الإلهى ومقاماته وأحواله مع الأخذ بالمجاهدة والتقشف والتنسك مــع الانقطــاع عن الدنيا والخلوص التام للمحبة الإلهية والنشوة بها إلى درجة الفناء فى الذات الإلهية ".

يقول أبو الحسن النورى :

كم حسرة لى وقد غصَّتْ مرارتها   جعلــتُ قلــبى لهــا وقفــاً لبلواك

وحــقَّ ما منك يبليني ويتلفني   لأبكينــك أو أحظى بلقيــاك

٥- كذلــك من الأغراض الجديدة فى هذا العصر : وصـف الــزهور : حيــث فتن شعراء العصر العباسى بالزهور فى الحدائق المتــناثرة خاصــة فى أرض فارس التى زينت بصنوف من الزهر

الفـــواح ذى الألـــوان المختلفة ، وقد اشتهر كثير من شعراء العصر بوصـــف الـــزهور والميل الشديد نحوها مثل : أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وعبد الله بن المعتز وغيرهم .

٦- **كذلك : وصف المصلوبين** : حيث لم يعرف المسلمون فـــى حـــياتهم صلب القتلى أو إحراقهم اللهم إلا ما فعله الحجاج بابن الزبـــير حيث صلبه وتركه مصلوبا فى الحجون أياماً عدة ولما شق ذلـــك على نفس أمه" أسماء بنت الصديق " قالت كلمتها المشهورة : أما آن لهذا الفارس أن ينزل ؟ أو يترجل ؟ .

ولكـــن هذه العادة السيئة شاعت أيام العباسيين واتخذت وسيلة مـــن وســـائل الإرهاب والتخويف لكل من تحدثه نفسه الخروج على الدولـــة ونظامهـــا وخليفتها ، وقد رأى شعراء العصر هذا المنظر السيئ يتكرر أمامهم ورأوا المصلوبين على شاطئ نهر دجلة فراحوا يصـــورون ذلك ويصفونه.واتخذ فناً جديداً من فنون الوصف وبلغوا به حد الجودة والكمال ، يقول أبو تمام فى صلب الأفشين وإحراقه :

لله مـــن نـــار رأيـــت ضـــياءها ضـــاق الفضـــاء به على النظار
مشـــبوبة رفعـــت لأعظم مشرك مـــا كـــان يرفع ضوءها للسارى
صـــلى لهـــا حـــياً وكان وقودها ميـــتاً ، ويدخلهـــا مـــع الفجـــار
وكذاك أهل النار فـــــى دنياهم يوم القيامة جـــــل أهـــل النار

٧- **كذلـــك وصف مجالس الطرب وآلاته ووصف حمامات الســـباحة وغـــير ذلـــك ممـــا وصفه الشعراء ورأوه فى مجتمعهم وحياتهم.**

٨- نظم العلوم والفنون والقصص : ويعد هذا الغرض جديدا فى العصر العباسى وقد دعا إليه الرغبة فى استظهار العلوم وسهولة تعليمها للناشئين ، حيث ضبطت مسائل الفقه والحديث واللغة وقواعد العلــوم وهو ما يسمى : بالشعر التعليمى " وقد دعا إليه أيضاً رقى الحياة العقلية فى العصر العباسى. وأبرع شاعر نظم هذا اللون : أبان بــن عبد الحميد اللاحقى حيث نظم فيه كليلة ودمنة فى نحو أربعة عشر ألف بيت والأحكام الفقهية فى بابى : الصوم والزكاة وسيرة كل من: أرد شــير وأنوشروان كما نظم قصيدة ضمنها مبدأ الخلق. وظل هذا اللــون من الشعر قائماً من بعده كما هو معروف عند على بن الجهم وعــبد الله بــن المعتز وابن دريد ، فقد نظم ابن الجهم مزدوجة فى الــتاريخ فــى أكــثر من ثلثمائة بيت ونظم ابن المعتز سيرة الخليفة المعتضد العباسى وأحداث عهده أما ابن دريد فله مقصورة مدح فيها عــبد الله بــن محمد بن مكيال والى الأهواز وابنه إسماعيل وقد بنى قافيــتها على الحرف المقصور وجعلها فى نحو مائتين وخمسين بيتاً حيث ضمنها ثلث المقصور فى اللغة ، فقد كان ابن دريد عالما لغويا كبيراً ينظم الشعر ويجيده وله قصائد أخرى وتتجلى فيها هذه الناحية التعليمية اللغوية .

شعر المدح :

يعــد شعر المدح من أهم الأغراض الشعرية التى عرفت فى الشــعر العــربى وأكــثرها شيوعاً فى دواوين الشعراء منذ العصر الجاهلى.

فقد وجد المدح فى شعر الجاهليين بكثرة حيث كانوا يمدحون زعماء القبائل وفرسانها وكبار الشخصيات التى وجدت فى عصرهم وراحوا يشيدون بمعان وصفات تتلاءم وقيم المجتمع الجاهلى فمدحوا الممدوحيــن بـــالقوة والشـــجاعة والجود والكرم والمروءة والغضب والقهر والمغامرة وغير ذلك .

وفى العصر الإسلامى ظل المدح من أهم الأغراض الشعرية بجـــوار شـــعر الدعوة الإسلامية ومناصرة الرسول صلى الله عليه وســـلم حيث تطور شعر المدح فى معانيه ومبانيه على السواء ، فقد انتشرت فيه المعانى الإسلامية التى جاء بها الدين الإسلامى .

ثـــم اتســـع مجال المدح فى عصر بنى أمية وانتشر انتشاراً كبـــيراً وقلما نجد ديوانا من دواوين شعراء العصر الأموى خالياً من شعر المدح سواء كان مدحاً سياسياً أو مدحاً اجتماعياً .

أمـــا فى العصر العباسى الأول فقد كان أكثر انتشاراً واتساعاً بفضـــل تشجيع الخلفاء والوزراء والقواد العباسيين للشعراء وإغداق الأموال والهبات عليهم مقابل مدائحهم ، كما كان شعر المدح فى هذا العصر وسيلة الشعراء إلى قصر الخلافة وإلى الغنى والثراء والجاه

ومن لم يستطع الوصول منهم إلى الخليفة وقف عند بعض وزرائه أو قواده ، فقد كان للبرامكة شعراء يمدحونهم وكان للأمراء والقواد وكبار رجال الدولة من يختص بهم من الشعراء .

كثر شعر المدح فى العصر العباسى الأول بحيث لم نجد شاعراً عباسياً لم ينظم فى المدح حتى أصبح المدح سلعة تباع وتشترى وكان مصدر دخل لكثير من شعراء العصر العباسى الأول.

وقد استمرت المعانى الفاضلة التى عرفت فى العصور السابقة فى شعر المدح العباسى بجوار المعانى الجديدة التى جادت بها مخيلة شعراء العصر بسبب التقدم العلمى والحضارى والأدبى الكبير الذى وجد فيه .

ولقد ظهر التخصص فى شعر المدح فى العصر العباسى بعد أن تشعبت الحياة الفكرية وتعقدت من ناحية معانيه ، فقد جعل الشعراء لكل ممدوح معانى وصفات خاصة به تتفق ومكانته وموقعه السياسى أو الاجتماعى أو العسكرى ، فللخليفة صفات خاصة به تتلاءم مع موقعه وللوزير وللقائد وللكاتب وللقاضى صفات خاصة تتناسب مع مكانة كل واحد منهم .

فالخليفة : يمدح بحسن تصريف أمور الدولة والعدل بين الرعية والتقوى والشجاعة وغير ذلك من الصفات التى تتلاءم مع موقعه .

والوزير والكاتب يمدحان بحسن الروية وسرعة الخاطر

والصـــواب والحزم وقلة الغفلة وجودة النظر للخليفة والنيابة عنه فى المعضـــلات فضـــلاً عن الوصف بالبلاغة والكرم والجود ، وأفضل مـــامدح بـــه القائد : الشجاعة والجود وما تفرع عنهما كالإفراط فى النجدة وسرعة البطش بالأعداء ونحو ذلك .

ويمـــدح القاضـــى بمعانى : العدل والإنصاف والمساواة بين الغـــنى والفقـــر ولين الجانب وغير ذلك فضلاً عن الورع والتقوى وماشاكلهما .

وهكذا وجدت فى هذا العصر الصفات والمعانى المتخصصة تـــبعاً للممـــدوح موضـــوع النص فضلاً عن وجود الصفات العامة المشتركة التى تجمع بين الممدوحين .

وكـــان الشـــعراء فى أول هذا العصر معتدلين إلى حد ما : يمدحون الخليفة بقدرته السياسية وبتصريف أمور الحكم وأنه الأجدر بهذا المنصب والخلافة من غيره وأنه بقدرته وحسن تدبيره استطاع أن يحقق الأمن والعدل بين رعيته ، فلما تقدم الزمن وجدنا الشعراء يـــبالغون فى مدائـــحهم مبالغة كبيرة حتى خرجوا بها عن دائرة العقل والـــذوق ، فالخلـــيفة تخافه الأجنة فى بطون أمهاتها ، والخليفة حين لـــبس برد النبى صلى الله عليه وسلم أوشك أن يكون نبياً والخليفة بيده الآجال والأرزاق .. الخ .

والعجيـــب فى ذلك أن الخلفاء الممدوحين بهذه المعانى كانوا يطربون لها ويعجبون بها ويغدقون الأموال الطائلة على أمثال هؤلاء

الشـــعراء حـــتى بلغت إحدى الجوائز مائة ألف دينار وأحياناً يترك الخلـــيفة للشـــاعر أن يخـــتار مايشاء من أموال مما يجعلنا نشك فى عاطفة بعض الشعراء فى مدائحهم ويجعلنا نحكم عليهم بأنهم صدروا فـــى قصـــائدهم عن شعور غير صادق وكان هذا المدح للرغبة فى أموال الخليفة .

وقـــد جـــاءت قصيدة المدح فى العصر العباسى على طرق مختلفة من النظم وعلى خطة متعددة جرى عليها الشعراء فى تنسيق معانيهم : فوجدنا قصيدة المدح التى يستهلها الشعراء بالمقدمة الطللية أو بوصـــف الخمر أو وصف الطبيعة أو وصف الشيب والشباب أو مقدمـــة التنجـــيم وغير ذلك من المقدمات التقليدية أو التجديدية التى اخترعها شعراء العصر العباسى .

ونســـتطيع أن نقســـم شعر المدح فى هذا العصر إلى قسمين متغايريـــن حيث يختلف كل قسم منهما عن القسم الآخر فى طبيعة الشعر الذى يسلك فيه :

***

أولا: المدح السياسى :

وهــو الــذى يتناول رجال الحكم والسياسة من خلفاء وأمراء ووزراء وقواد وولاة وغيرهم من رجال الدولة حيث تطغى المعانى السياسية والصفات التى تلائم المنصب السياسى الذى يتولاه الممدوح على معانى المدحة .

ثانياً : المدح الاجتماعى :

وهــو هــذا الــنوع مــن المــدح الذى يتناول فيه الشعراء الشخصــيات العامــة فى المجتمع ، حيث تطغى المعانى والصفات العامــة على المدحة .. فضلاً عما يضم كل منهما من معان مشتركة عامة تشمل القسمين معاً وتشيع فى المدائح كلها بوجه عام .

ومــن المــداح المشهورين فى هذا العصر : مروان بن أبى حفصــة وبشــار بــن بــرد وأبى نواس ومسلم بن الوليد وأبو تمام والبحترى .

ومــن نماذج شعر المدح السياسى فى العصر العباسى الأول قــول مــروان بن أبى حفصة فى مدح المهدى بادئا مدحته بالغزل ومحتجا لبنى العباس :

طرقــتك زائــرة فحــىّ خــيالها بيضــاء تخلــط بالجمــال دلالهــا

قادت فؤادك فاستقاد ومثلهــــا قاد القلوب إلــــى الصبا فأمالها

إلى أن قال :

أحــيا أمــير المؤمنيــن محمــدُ ســنن النــبى حلالهــا وحــرامها

ملــك تفــرع نــبعة مــن هاشم مــدَّ الإلــهُ علــى الأنــام ظلالها
ثبــتٌ علــى زلل الحوادث راكب مــن صَــرْفهن لكــل حــالٍ حالَها
كلــتا يديــك جعلْت فضل نوالها للمســـلمين وللعـــدو وبالهـــا
هل تطمسون من السماء نجومها بـــأكفكم أم تحجـــبون هلالهـــا ؟
أم تجحدون مقالةً عن ربكـــــم جبريل بلغهـــــا النبى فقالهـــا
شهدت من الأنفال آخر آيـــــة بتراثهمْ فأردتمـــو إبطالهـــــا

ومـــن المـــدح السياســـى فى هذا العصر : مدح أبى العتاهية للرشـــيد : حيث ذكر" أن الروم كانت تملكهم امرأة وكانت تكتب إلى المهدى والهادى والرشيد فى أول أمره بالتبجيل والتعظيم وتدر عليهم الهدايا حتى بلغ ابن لها فحاز الملك دونها وفاسد الرشيد فاحتالت أمه وسملت عين ابنها حتى لا يصلح للملك وعاد الملك إليها ولكن خرج علـــيها كاتب لها يقال له " نقفور" وأعانه أهل المملكة وساعدوه فقام بأمر الملك ولما قوى وتمكن كتب إلى الرشيد : من نقفور ملك الروم إلـــى الرشيد ملك العرب : أما بعد : فإن هذه المرأة وضعتك وأباك وأخـــاك موضـــع الملـــوك ووضـــعت نفسها موضع السوق ، وإنى واضعك بغير ذلك الموضع وعامل على تطرّق بلادك والهجوم على أمصارك أو تؤدى إلىّ ماكانت المرأة تؤديه إليك ، والسلام .

فلمـــا ورد كـــتابه على الرشيد كتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم :

أمـــا بعـــد -: فقـــد فهمت كتابك ، وجوابك عندى ما تراه عياناً لا ما تســـمعه . ثـــم جهز جيشاً كثيفاً جراراً من شهره وفى جمع لم يُسمع مـــثله وقـــواد لا يجارون رأيا ولما بلغ ذلك «نقفور» ضاقت عليه بما رحبـــت ، وراح الرشـــيد يتوغل فى أرض الروم يقتل ويسبى ويغنم ويخـــرب الحصـــون ويدمـــر القلاع حتى وصل «القسطنطينية» ولما وصـــلها وجـــد نقفـــورا وقـــد أمر بالشجر فقطع ورمى فى الطرق وأشعلت فيه النيران فكان أول من لبس ثياب النفّاطين محمد بن يزيد فخاضها وتبعه الناس فبعث نقفور إلى الرشيد بالهدايا وخضع له أشد الخضوع وأدى إليه الجزية عن رأسه فضلاً عن أصحابه :

وفى ذلك يقول أبو العتاهية :

إمام الهدى أصبحت بالدين معنيّا	وأصـــبحت تسقى كل مستمطر ريّا
لك اسمان شقا من رشاد ومن هُدى	فأنـــت الـــذى تُدعى رشيداً ومهدّيا
بســـطت لنا شرقاً وغرباً يدَ العلا	فأوســـعت شـــرقياً وأوسعت غربيّاً
ووشّيْت وجه الأرض بالجود والندى	فأصبح وجه الأرض بالجود موشيا
وأنـــت أمير المؤمنين فتى التقى	نشرْت من الإحسان ما كان مطويّا
قضـــى الله أن يبقى لهارون ملكه	وكـــان قضاء الله فى الخلق مقْضياً
تحلّيت للدنيـــا وللدين بالرضى	وأصبـــــح نقفـــور لهارون ذميّا

ثم نقض نقفور العهد وغدر وأراد الهجوم على المسلمين فعلم هـــارون من إعلام الشعراء الذين أدخلهم إليه يحيى بن خالد ليقولوا

الأشعار أمام الرشيد فأنشدوا أشعارهم وعلم الرشيد بالأمر فجهز جيشه وغزاه أيام الثلج وافتتح هرقلة كما افتتح قبلها كثيراً من المدن ودمرها فقال أبو العتاهية قصيدته :

ألا نادت هرقلة بالخراب	من الملك الموثق بالصواب
غدا هارون يُرعد بالمنايا	ويُبرق بالمذكرة الغضاب
ورايات يحل النصر فيها	تمرّ كأنها قِطع السَّحاب
أميـر المؤمنين ظفرْت فاسلم	وأبشرْ بالغنيمة والإياب

ولما انصرف الرشيد من غزاة هرقلة قدم الرقة في آخر شهر رمضان فلما عيَّد جلس للشعراء فدخلوا عليه وأنشدوه شعراً .

ومن شعر المدح السياسى مدح أبى نواس للخليفة محمد الأمين :

وإذا المطىّ بنا بلغن محمداً	فظهورهن على الرجال حرامُ
قرَّبننا من خير من وطئ الحصى	فلها علينا حُرمة وذمام[1]
رفع الحجاب لنا فلاح لناظرٍ	فمرتقطعُ دونه الأوهام[2]
ملك إذا علقت يداك بحبله	لا يعتريك البؤس والإعدام[3]
فالبهو مشتمل ببدر خليفة	لبس الشباب بنوره الإسلام
إن الذى يرضى الإله بهديه	ملكٌ تردَّى الملك وهو غلامُ

(١) الحرمة والذمام : بمعنى واحد .

(٢) تقطع : أى تنقطع . والقَمَر : وجه الممدوح .

(٣) علقت : تعلقت .

ملكٌ إذا اعتسر الأمورُ مضى به رأىٌ يفلُّ السيف وهو حُسام
داوى به الله القلوب من العمى حتى أفقْن وما بهنَّ سقامُ
أصبحت يا ابن زبيدة بنة جعفر أملاً لِعقد حباله استحكام[1]
فسلمتَ للأمر الذى تُرجى له وتقاعست عن يومك الأيامُ

ومن روائع قصائد المدح فى العصر العباسى : مدح أبى تمام للمعتصم فى فتح عمّورية والتى بدأها بمقدمة جديدة أطلق عليها مقدمة التنجيم ". يقول فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا فى السبعة الشهب

إلى أن قال :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القُشب
أبقيت جدّ بنى الإسلام فى صُعُد والمشركين ودار الشرك فى صَبَب

إلى أن قال :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مُرتغب فى الله مرتقب
ومطعم النصر لم تكهم أسنته يوماً ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قوماً ولم ينهد إلى بلد إلا تقدمه جيش من الرُّعُب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا من نفسه وحدها فى جحفل لجب

---

(١) زبيدة : أم الأمين جاءت به من هارون الرشيد .

رمى بك الله برجيها فهدمهـــا ولو رمى بك غير الله لــــم تصب

ويمضى حتى آخر القصيدة التى تشبه الملحمة ويختمها بقوله:

أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

ومن المدح السياسى قصيدة مسلم بن الوليد التى مدح بها داود ابن حاتم المهلب ويقول فيها :

لا تدعُ بى الشوق إنى غير معْمود نهى النُّهى عن هوى البيض الرعاديد

إلى أن قال :

موّحـد الـرأى تنشق الظنون له عـن كـل مُلتـبس منها ومعقود

كالليث بل مثله الليث [٢]الهصور إذا غـنَّى الحديـدُ غِـناءَ غير تغريد

يلقـى المنـية فـى أمثال عُدَّتها كالسـيل يقـذفُ جلمـوداً بجلمود

نفسـى فـداؤك ياداود إذ علقتْ أيدى الردى بنواصى الضمرَّ القود[١]

تجود بالنفس إن ضنَّ الجوادُ بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ومن نماذج المدح الاجتماعى الذى يتعلق بالشخصيات العامة الاجتماعــية من ذوى الجاه والثراء حيث اقتصرت هذه المدائح على الصــفات العامة والتى بعدت بمعانيها عن السياسة ومظاهرها والتى نـــأت عن التذلل للممدوح أو التواضع له أو تقبيل الأرض بين يديه كما هو الشأن فى مدح الخلفاء ووزرائهم وقوادهم.حيث كان الشاعر يرى نفسه مثل هؤلاء الممدوحين الاجتماعيين إن لم يكن أعظم منهم

---

(١) الهصور : الذى يكسر فريسته كسرا.

(٢) الضمر : جمع ضامر وهو الفرس الخفيف اللحم . والقود : جمع أقود : الطويل الظهر.

لذلـــك وجدنـــا عاطفـــة هادئة غير ملتهبة كما هو الحال فى المدح السياســـى ، ومـــن هذا القبيل قول مسلم بن الوليد فى مدح سهل بن الصباح بعد أن مهد لقصيدته بمقدمة تحدث فيها عن نفسه وما يعتلج فـــيها من هموم وآلام وعن آماله التى يرجوها ثم تخلص إلى المدح بقوله :

بلغـــنا بســـهل ثـــروة ووســـيلة　　　إلـــى وفـــر مـــال واســـع وتفضل

وعـــند أبـــى يحيى غنى لا يمنه　　　وعـــود مـــتى ما يدبر المال يقبل

جـــواد تغـــاواه العـــواذل بيـــنها　　　ويقصـــرن عـــنه هيـــبه المـــتذلل

فتى كرم يعطـــــى وإن قل ماله　　　ولا تبقـــــى طلابــــــه بالتعلّل

حيـــث راح الشـــاعر يمدح ممدوحه على هذه الشاكلة مركزاً على مدحه بالكرم والجود مظهراً رغبته الشديدة فى عطاء الممدوح ولكن فى كبرياء وعزة .

***

شعر الهجاء :.

كذلك انتشر شعر الهجاء فى العصر العباسى الأول واشتعلت نـــيرانه ولم يكن الشعراء يتركون خليفة أو وزيراً أو قاضياً أو قائداً أو والـــياً أو مغنـــية حتى الأصدقاء والزوجات إلا ووجدنا الشعراء يسددون سهام هجائهم نحوهم ، حتى بلغ الأمر أن توجه الشعراء إلى بعضهم البعض بالهجاء وراحوا يتبادلونه فيما بينهم .

وقـــد بالغ الشعراء العباسيون فى الهجاء كما بالغوا فى شعر المـــدح وراحوا يستحلون منه ما يرفضه الذوق السليم وتأباه الطبيعة الإنسانية ويرفضه الدين ويحرمه .

وقـــد اتسعت معالم التطور واضحة فى شعر الهجاء فى هذا العصـــر وكانت هذه المعالم أعمق وأوسع منها فى المدح لأن الهجاء يتصل بالحياة العامة للشعب اتصالاً أدق وأوضح من اتصال المدح .

وإذا كانت الحياة فى المجتمع العباسى قد بعدت إلى حد كبير عـــن العصـــبية القبلية التى كانت فى العصر الأموى فإنه قد وجدت عصـــبية أو عصـــبيات من نوع آخر كالتعصب الجنسى بين العرب والفرس والتعصب المذهبى بين السنة والشيعة والخوارج والمعتزلة وغير ذلك من العصبيات التى برزت على الساحة فى هذا العصر .

وإذا كان فن التناقض قد ضعف أو كاد أن يتوارى فى العصر العباسى بسبب اختفاء دواعيه وبواعثه فإن الهجاء لم يضعف فى هذا العصـــر بسبب التنافس الشديد بين الشعراء وظهرت فيه روح جديدة

وأصبح الهجاء فى العصر العباسى الصحيفة التربوية المقابلة للمدح وراح الشعراء يتبارون فيه وفى رسم صوره ومعانيه .

وقد اشتهر كثير من شعراء العصر وعرفوا بالهجاء مثل: دعبل الخزاعى والبحترى وابن الرومى وغيرهم ، فدعبل الخزاعى لم يسلم من لسانه أحد حتى الخلفاء أنفسهم ووزرائهم وأولادهم سواء من أحسن إليه أم لم يحسن ، والبحترى حينما نتصفح ديوانه نراه يزخر بالكثير من شعر الهجاء السياسى والاجتماعى حيث اشتهر البحترى بهجائه بعض ممدوحيه حين تسوء العلاقة بينه وبينهم ، وابن الرومى شاعر الهجاء الكبير فى العصر العباسى الأول وأستاذ الهجائين فى الشعر العربى حيث أكثر من الفحش والبذاءة وبلغ المدى فيها ، فضلاً عن كثير من الشعراء الذين نظموا شعراً فى الهجاء ويكاد كل الشعراء ينظمون فى هذا الفن من الشعر ولكن كان ذلك بمقدار .

وقد ذهب الشعراء فى هجائهم إلى الهجاء بالبخل وسوء الخلق والتندر والسخرية وتناولوا الأعراض والأنساب والصفات الخلقية .

ومن قبيل الهجاء السياسى قول بشار بن برد فى هجاء الخليفة المهدى :

خليفة يزنى بعَمَّاته ... يلعب بالدَّبُّوق والصَّوْلَجان[1]

---

[1] الدبوق : من لعب صبيان العرب .

أبدلنـــا الله بـــه غيره   ودسَّ موسى فى حِر الخيزران[١]

ويهجو دعبل الخزاعى الخليفة الرشيد فيقول :

أربع بطوس على قبر الزكىّ إذا   ماكنـت تـربَع مـن ديـن وطر

قبران فى طوس:خير الناس كلهم   وقـبر شـرهم هـذا مـن العـبر

مايـنفع الرجس من قرب الزكى ولا   علـى الزكىّ بقرب الرجس من ضرر

هيهات كل امرئ رهن بما كسبت   له يداه فخذ ما شئت أو فـذر

فالشـاعر يهجو الخليفة هارون الرشيد ويجعله رجساً وما هو بالـرجس فقد عاش الرشيد طاهراً عفيفاً مجاهداً فى سبيل الله مدافعاً عن الإسلام وقضى حياته كلها إما حاجاً وإما غازياًءولعن الله دعبلا الفاسـق سليط اللسان قد دعته عصبيته الشيعية إلى بغض هذا العلم من أعلام الإسلام والمسلمين .

ويـتعرض دعـبل الخزاعى لخليفة آخر هو الخليفة المعتصم بـالله الـذى قضـى حياته هو الآخر دفاعاً عن الإسلام والمسلمين وخاض الحروب بنفسه ضد جحافل الشرك من الروم ، فقال يهجوه:

بكى لشتات الديـن مكتئب صبٌّ   وفاض بفرط الدمع من عينه غَرْبُ

وقـام إمـام لـم يكـن ذا هداية   فلـيس له ديـن ولـيس له لُـبُّ

ومـا كانـت الأنـباءُ تأتى بمثله   يُملَّـك يومـاً أو تديـن له العُربُ

ولكـن كمـا قـال الذين تتابعوا   من السلف الماضين إذ عُظم الخطب

ملوك بنى العباس فى الكتب سبعة   ولـم تأتـنا عن ثامن منهمُ الكُتب

---

(١) الخيزران : من جوارى المهدى وهى أم ولديه موسى وهارون .

كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة ... كـرام إذا عُـدُّوا وثامـنهم كلْـب
وإنّـى لأعلـى كلبهم عنك رفعة ... لأنـك ذو ذنـب ولـيس له ذنـبُ
لقد ضاع مُلك الناس إذ ساس ملكهم ... وصيف وأشناسُ فقد عظـم الكربُ

ويهجو البحترى أحمد بن الخصيب ممدوحه فيقول فيه :

لابـن الخصيب الويل كيف انبرى ... بإفكـه المُـردى وإبطالـه
كـاد أميـن الله فـى نفسـه ... وفـى موالـيه وفـى مالـه
والرأى كـل الرأى فـى قتله ... بالسيف واستصفـاء أموالـه

ويقول ابن الرومى – وهو أكبر شعراء الهجاء فى عصره – يقول فى وصف بخيل :

يُقـتِّر عيسـى علـى نفسـه ... ولـيس بـباق ولا خـالد
فلـو يستطيـع لتقتيره ... تنفَّس مـن منخرٍ واحـد

ويقول حماد عجرد يهجو بشاراً حين اشتد الهجاء بينهما :

وأعمـى يشـبه القـرد ... إذا مـا عمـى القـردُ
دنـئ لـم يـرُح يومـاً ... إلـى مجـد ولـم يَغْـدُ
ولـم يَحْضُـرْ مـع الحُضـا ... ر فـى خـير ولـم يَـبْدُ
ولـم يخْش لـه ذمّ ... ولـم يُرْج لـه حَمْـدُ

ويقال : إن بشاراً حين سمع هذه الأبيات بكى من شدة إيلامها وأثرها على نفسه فقيل له : يابشار : أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال : والله ما أبكى من هجائه ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه فيصفنى ولا أصفه».

ويهجو مطيع بن إياس جارية كان يعشقها يقال لها : "جوهر":

زعموهـــا قالـــت وقد غاب فيها قـــائم فـــى قـــيامه استحصاف[١]

وهـــو فـــى جـــارة استها يتلظى يـــا فـــتى هكـــذا .... الظـــراف

... ضــــيفها وقـــــبل فاهــــا يـــا لقومـــى لقـــد طغى الأضياف

لم يزل يرهـــــــز الشهية حتى زال عنها قميصها والعطــاف[٢]

ويهجو محمد بن كناسة " امرأته " وكان قد نظر إلى مصلوب علـــى جـــذع أثناء مروره فى طريق بغداد وكان يكره امرأته وثقل عليه مكانها فقال فيها :

أيا جذع مصلوب أتى دون صلْبه ثلاثـــون حـــولاً كـــاملا هل تُبادل؟

فما أنت بالحِمْل الذى قد حملتـــه بأضجر منى بالــــــذى أنا حامل

* * *

(١) استحصاف : استحكام .

(٢) يرهز : يحرك . العطاف : الرداء.

يعد شعر الرثاء من أهم الأغراض الشعرية وأبرزها فى العصر العباسي الأول، فقد انتشر انتشاراً واسعاً واحتل مرتبة متقدمة بين أغراض الشعر العربى فى ذلك العصر، ونشط شعراء العصر نشاطاً ملحوظاً فيه فلم يمت خليفة ولاأمير ولاوزير ولا قائد ولاعالم ولافقيه إلا وتنافس الشعراء فى رثائه وتأبينه وتقديم العزاء لأهله ويرجع ذلك إلى زيادة الاتصال الوثيق بين خلفاء العصر وشعرائه وإغداق الأموال الطائلة عليهم فى حياتهم مما جعلهم يشيدون بهم مادحين فى حياتهم راثين مؤبنين معزين بعد مماتهم .

فضلاً عن تسابق الشعراء فى رثائهم لقتلى المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين وغيرهم ورثائهم لتلك المدن الإسلامية التى خربها أهل الكفر والشرك ودمروها تدميراً، فضلاً عن هذا الكم الهائل من شعر الرثاء الذى ذرفه شعراء الشيعة على أئمتهم من آل البيت يصورون فيه مآسيهم وفواجعهم تصويراً حزيناً باكياً مثبتين أحقيتهم فى الخلافة دون غيرهم .

وفضلاً عن هذا الكم الهائل من شعر الرثاء الاجتماعى الذى بعد عن مناصب الدولة والتيارات السياسية فيها، حيث أخذ الشعراء يبكون أهلهم وأقاربهم وأصدقائهم على اختلاف أعمارهم وقرابتهم، فقد رثوا الأبناء والبنات والآباء والأمهات والأزواج والزوجات والإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والخالات وغيرهم من الأهل والأقارب ورثوا أصدقاءهم وكل من اتصل بهم اتصالاً وثيقاً من أبناء الأمة، كما رثوا العبيد والجوارى، فضلاً عن رثائهم لأنفسهم قبل مماتهم ورثائهم للحيوانات والطيور والزروع وغيرها مما هو شائع ومنتشر فى شعر شعراء العصر .

وبرع كثير من شعراء العصر فى فن الرثاء براعة معدومة النظير وأصبحت قصائدهم الرثائية أو أصبح بعضها مضرب الأمثال وسار بها الركبان شرقاً وغرباً، كمرثية ابن الرومى فى لده الأوسط ومرثية دعبل الخزاعى فى آل البيت ومرثية أبى تمام فى محمد بن حميد الطوس ومرثية البحترى للمتوكل وغيرها الكثير والكثير مما تزخر بها دووابن شعراء العصر العباسى الأول .

«الرثاء الاجتماعي في الشعر العباسي»

استطيع أن أقسم الرثاء في شعر العصر العباسي الأول إلى : رثاء سياسي ورثاء اجتماعي، فالرثاء السياسي : هو هذا اللون من الرثاء الذي يتعلق برجال السياسة في الدولة من خلفاء أو أمراء أو وزراء أو قواد للجيش أو كبار المسئولين في الدولة أو يتعلق بعقيدة سياسية بشأن الخلافة أو الحكم كرثاء الأئمة من آل البيت .

أما الرثاء الاجتماعي : فهو هذا اللون من الرثاء الذي تحكمه العلاقات الاجتماعية بعيداً عن شئون السياسة والجهة الرسمية للدولة كرثاء الأهل والأصدقاء ونحو ذلك .

وإن كانت طبيعة الرثاء تجعله اجتماعياً مهما يكن متصلاً بفرد من الأفراد لأنه يتحدث عن الحياة والموت وفراق الأبناء والأهل والأصدقاء والأعلام النابهين وكل ذلك يشترك فيه أفراد المجتمع.[1] إلا أن النوعين يختلفان في الباعث والداعي فالأول باعثه سياسي . والثاني باعثه اجتماعي يبعد عن السياسة والجهة الرسمية للدولة .

فضلاً عن الاختلاف في الغالب في كيفية الرثاء وصوره وصفات المرثي .

والرثاء الاجتماعي يحتل مكانة عظيمة في شعر الرثاء في ذلك العصر نظراً للترابط الوثيق بين أفراد المجتمع الإسلامي ونظراً للصحبة والصداقة التي كانت تربط بين الشعراء وكثير من أبناء الأمة العباسية، ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الشعراء وأهلهم وذويهم ونظراً لما طرأ على المجتمع من تقدم حضاري وثقافي وتغيير في العادات والتقاليد الاجتماعية، فلم يعد رثاء الشعراء لأهليهم دليلاً

---

(١) ص١١٠ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور/ د/ شوقي ضيف، دار المعارف .

على الضعف المناقض للعزة والأنفة والكبرياء التى عرفت عن العرب فى عصر الجاهلية، بل أصبح رثاء الشاعر لأهله دليلاً على رهافة الإحساس والمشاعر ورقة العاطفة والوجدان .

ويضم الرثاء الاجتماعى موضوعات متعددة بين طياته فيتناول رثاء الأبناء والبنات ورثاء الآباء والأمهات ورثاء الأزواج والزوجات ورثاء الإخوة والأخوات والأعمام والأخوال والخالات ورثاء الجوارى والعبيد فضلاً عن رثاء الأدباء والعلماء .

وسوف أتناول بعون الله كل موضوع منها تناولاً منفرداً عن بقية الموضوعات الأخرى بشىء من التفصيل واستيفاء الموضوع بقدر المستطاع .

رثاء الأبناء والبنات :

يعد رثاء الأبناء من أهم موضوعات الرثاء الاجتماعى وأبرز موضوع فيه كما وكيفا حيث يحتل أكثر الصفحات المحزونة من رثاء الأهل والأقارب جميعاً فضلاً عن هذه الحرقة ولهيب الحزن ونيران الألم التى تفوح بها قصائد الرثاء فى الأبناء، هذه الحرقة وهذا اللهيب اللذان ينبعان من قلب مكلوم حزين تغشاه الحسرة والفجيعة على فراق عضو منه وفضلاً عن صدق العاطفة الموغلة فى صدقها حيث تنبع الأشعار فى رثاء الأبناء من بين طيات قلب الشاعر معبرة عن أحاسيس الشاعر بكل الصدق الذى لايشوبه أدنى شك، وكيف لا يكون ذلك كذلك وقد فجع الشاعر فى أغلى شىء لديه إنه كبده وفؤاده ونور عينيه .

إن أصوات الآباء الشعراء قد بحت من البكاء والندب والعويل مع موت أبنائهم وأفلاذ أكبادهم لأنهم يرون فيهم قطعة من أجسادهم وعضوا من أعضائهم قد بترت بتراً وانتزعت انتزاعاً منهم وأمام عيونهم .

فرثاء الأبناء أبكى وأندب وأفجع الرثاء كله سواء كان هذا الرثاء اجتماعياً أو سياسياً ففيه الأهات الحزينة والآلام الدفينة بل هو عصارة نفس خيم عليها الحزن وتمكن منها كل تمكن .

ورثاء الأبناء موضوع شعرى تناوله معظم شعراء العصر العباسى الأول إن لم يكونوا كلهم تناولاً رائعاً مبرزين عظم الفجيعة وأهات الحزن والحسرات فى تصوير رائع وصور بارعة مع تباين بينهم فى عظم الروعة والبراعة .

وسعر موت الأبناء قلوب الشعراء فبكوهم بدموع غزار وأنوا أنيناً حاراً من قلوب جريحة كوتها نار الفراق الملتهبة ومضوا يتأوهون وجذوات الحزن الممض تلذع أفئدتهم لذعاً (١) واشتهر كثير من شعراء العصر فى هذا الرثاء وتزخر بها دواوينهم .

فمن رثاء الأبناء قول بشار يرثى محمداً ابنه ويبكيه بكاءاً حاراً فيقول :

أجارتنا لاتجزعى وأنيبى	أتانى من الموت المطل نصيبى
بنىٌّ على قلبى وعينى كأنه	ثوى رهن أحجار وجار قليب (٢)
كأنى غريب بعد موت محمد	وماالموت فينا بعده بغريب
صبرت على خير الفتو رزئته	ولولا اتقاء الله طال نحيبى (٣)
لعمرى لقد دافعت موت محمد	لو أن المنايا ترعوى لطبيب
وماجزعى من زائل عم فجعه	ومن ورد آبارى وقصد شعيبى (٤)

---

(١) ص٢١٦ العصر العباسى الثانى د / شوقى ضيف ، الطبعة الخامسة. طبع دار المعارف بمصر .

(٢) فى الكلام تقديم وتأخير وأصله : بنى كأنه ثوى على قلبى وعينى . والقليب : البئر والمراد هنا : القبر .

(٣) الفتو : جمع الفتى .

(٤) الشعيب : مزادة الماء .

ومن روائع شعر الرثاء في الأبناء قصيدة "ابن الرومى" الذى يرثى فيها ولده الأوسط "محمداً" وقد مات منزوفاً وهو لم يزل صبياً فأحس بأن الموت قد اختطفه منه وانتزع منه نياط القلب وفلذة الكبد فراح يبكيه بكاءً حاراً بدموع غزار وكله حزن وألم وحسرة على ماأصابه في ولده ، فيقول :(١)

بكاؤكما يشفى وإن كان لايجدى ... فجودا فقد أودى نظيركما عندى
بنى الذى أهدته كفّاى للثرى ... فياعزة المُهْدى وياحسرة المهدى
ألا قاتل الله المنايا ورميها ... من القوم حبات القلوب على عمد (٢)
توخى حمام الموت أوسط صبيتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد (٣)
على حين شمت الخير من لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد (٤)
طواه الردى عنى فأضحى مزاره ... بعيداً على قرب قريباً على بعد (٥)
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها ... وأخلفت الآمال ماكان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد

ففى هذا الجزء من المرثية يتحسر الشاعر ويتوجع لموت ابنه ويسخط على المنايا التى رمته بمصائبها فى ولده وكأنها أماتته عن عمد وسبق إصرار، هذا الفقيد الذى كان يحى الأمل فى نفس أبيه لما كان يحسه فيه من الخير إلا أن الموت عاجله وداهمه على غرة وباعد بين الأب وولده واستطاع الموت أن ينفذ وعيده لولده أما هو فقد أخلفت الآمال ماكان يرجوه منه .

---

(١) ص٦٢٤ جـ٢ ديوان ابن الرومى ، تحقيق / د / حسين نصار طبع : مطبعة دار الكتب . عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

(٢) قاتل الله المنايا : لعنها حبات القلوب : سويداؤه .

(٣) توخى : تحراه وقصده عن عمد . واسطة العقد : أعظم جوهرة فيه .

(٤) شمت توقعت .

(٥) يريد بالقرب : قرب المكان ، وبالبعد : بعد اللقاء .

رثاء الآباء والأمهات :

يعد رثاء الآباء من الموضوعات الرثائية القديمة التى عرفها الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، وظل فى العصر الإسلامى والأموى إلا أنه كان من الموضوعات المقلة التى لم تأخذ حقها كبقية الموضوعات الرثائية الأخرى مثل: رثاء الأبناء والإخوة والأصدقاء، وظل رثاء الآباء على هذه الحالة المقلة فى العصر العباسى الأول فلم يحتل رثاء الآباء حيزاً كبيراً من جملة شعر الرثاء الاجتماعى فى العصر العباسى الأول ولعل ذلك يرجع إلى موت الآباء دون أن يراهم الأبناء الشعراء أو موتهم قبل أن يكونوا شعراء قادرين على نظم القريض أو لأسباب أخرى غير ذلك .

المهم أن شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول احتوى بين طياته رثاء الآباء وبكائهم والتفجع عليهم وندبهم ندباً حاراً وتأبينهم وذكر فضائلهم ومناقبهم وشمائلهم وتصوير عظيم المصيبة والفجيعة التى حلت بموتهم إلا أننا لم نجد هذه الحرقة وهذا الحزن الدفين والآهات الملتهبة التى تقطع الأحشاء والأكباد فى رثائهم الآباء والتى عهدناها فى رثاء الأبناء، فقد جاء رثاء الآباء خافتا بعض الشىء فى حرارته وعاطفته عن رثاء الأبناء .

ولاضير فى ذلك فالأبناء أغلى مايملك الإنسان وأعز من فى الوجود بالنسبة لآبائهم فضلاً عن أنهم يموتون وهم فى ريعان شبابهم أو قبل الشباب مما يجعل المصيبة أو هى وأعظم .

ومن شعر رثاء الآباء فى العصر قول الشاعر أبى محمد عبد الله بن يوسف يرثى أباه فيقول :(١)

تطاول فى بغداد ليلى وضافنى	نزيلاً جوى بين الحشا والترائب
أناخا على صبرى فخلى مكانه	لفقد أب بر جزيل المواهب

---

(١) ص٢٣٨ الأوراق ، للصولى .

أبا جعفر ياخير وائل كلها إذا نزلت بالناس إحدى النوائب
وحاميهم إن صبحتهم مغيرة عليها المنايا فى صدور الكتائب
فتى كان مثل السيف إن هزمنه أتى حده دون الطلى والغوارب
له شيمة عند المحامة فظة تشيم العدا منها بروق المعاطب
وتلكه عند الندى أريحية تحكم فى أمواله كل راغب
تخال به ليثاً وغيثاً وسنة من البدر تجلو مسدفات الغياهب
إذا يده بلت بقائم سيفه هوت قمم الأعداء من كل جانب
وليس بناج منه قرن يريده ولو حل بين الجاريات الثواقب
سلامٌ على قبر تضمن شلوه وجادت عليه هاطلات السحائب
بمثل ندى كفيه أو مثل عبرتى عليه فرواه حياً غير ناضب

يرثى الشاعر أباه ويعلن عن حزنه وأساه لفقده، هذا الأب الفقيد الذى أورث الشاعر السهر وعدم الراحة وأورثه الحزن الدفين بين حشاياه وترائبه، هذا الأب الذى كان عظيماً فى قبيلته وأهله شجاعاً مقداماً يحميهم ويرد عنهم الأعداء إن أصابهم مكروه، هذا الأب المقاتل الذى أفزع الأعداء بشجاعته وشدة بأسه، ومع شجاعته وقوة بأسه يتسم بالندى والأريحية، ثم يسلم الشاعر على قبر أبيه ويدعو له بالسقيا على عادة الشعراء العرب القدامى .

فالمرثية تقليدية فى صورها ومعانيها وأفكارها ، وهى تأبين للفقيد وتعداد لفضائله ومميزاته وشمائله تسودها عاطفة حزينة صادقة كلها أسى وتحسر على هذا الأب الفقيد.

ويروى أنه قيل للشاعر حينما رثى أباه بهذه الأبيات : "وصفت أباك بالشجاعة والقتال وهو كاتب جبار ! فقال : والله ماوصفته إلا بما فيه ولقد حججت معه سنة فخرج علينا أعراب فما كان فى القافلة أشجع منه ، قتل فارساً وأسر فارساً ولكنه كان يكتم هذا ولايذكره"(١) .

---

(١) ص٢٣٨ الأوراق .

كما ورد فى شعرهم رثاء الخال - الذى هو بمنزلة الأب - رثاءً لايختلف عن رثائهم لآبائهم (١) .

وإذا كان شعراء العصر العباسى الأول قد بكوا آباءهم ورثوهم فإنهم مع ذلك بكوا أمهاتهم ورثوهن إلا أن ذلك كان نادراً. فقليل من شعراء العصر من رثى أمه، ولم يكن مثل ماذهب إليه الدكتور على إبراهيم أبو زيد "من أن صورة الأم شغلت الحيز الأكبر من وجدان الشعراء الذين رثوا أمهاتهم"(٢)، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قصور الأبناء فى رثاء أمهاتهم تقليداً للعرب فى الجاهلية الذين كانوا لايؤثرون ذلك . ولاتبلغ مراثى الأمهات ماتبلغه مراثى الأبناء من حرارة التفجع واشتعال العاطفة ولم نجد هذه الحرقة التى تتقطع لها الأحشاء وتتمزق لها الأكباد .

وممن رثى أمه من شعراء العصر العباسى الأول الشاعر ابن الرومى حيث يقول فى رثائها : (٣)

رأيت طويل العمر مثل قصيره ... إذا كان مفضاه إلى غاية تؤم

تقعقعه الأوقات وهى بقاؤه ... وتغتاله الأوقات وهى له طعم

هو الواهب السلوان والصبر وحده ... لذى الرزء والمهدى الشفاء لذى السقم

طوى الموت أسباب المحاباة بيننا ... فلست وإن أطنبت فيك بمهتم

رجعنا وأفردناك غير فريدة ... من البر والمعروف والخير والكرم

فلا تعدمى أنسى المحل فطالما ... عكفت فآنست المحاريب فى الظلم

---

(١) ينظر على سبيل المثال : الأوراق للصولى ص٢٥٢ ، وديوان ابن الرومى ص١١٣١ جـ٣ .

(٢) ص٢٩٤ صورة المرأة فى الشعر العباسى، الطبعة الأول، عام ١٩٨٣ طبع : دار المعارف بمصر .

(٣) ص٤١٧ جـ٢ ديوان ابن الرومى .

«الرثاء السياسي»

أقصد بالرثاء السياسى : هذا اللون من الرثاء الذى يتناول الشخصيات الحاكمة فى الدولة من : خلفاء ووزراء وقواد وولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة بالبكاء عليهم وتأبينهم والعزاء فيهم فضلاً عن رثاء الأئمة من آل البيت النبوى وشيعتهم وندبهم والتفجع عليهم فى شعر رثائى تفوح منه رائحة السياسة بل والعقيدة السياسية التى آمن بها الشاعر وأهدافه وآراءه السياسية التى اعتقدها .

فالرثاء السياسى هو هذا اللون من الرثاء الذى نظم بدوافع سياسية أو دعى إليه منصب سياسى أو كان المرثى من رجال السياسة والحكم فلولا وجوده فى هذا المنصب مارثاه الشعراء وبكوا عليه .

ويشمل هذا اللون من الرثاء فى العصر العباسى الأول : رثاء الخلفاء العباسيين ووزرائهم وولاتهم وقوادهم وكبار رجال دولتهم فضلاً عن هذا الرثاء الذى قيل فى آهل البيت النبوى وأئمتهم وشيعتهم والثائرين منهم على الدولة العباسية .

رثـــاء الخلفاء :

قامت الدولة العباسية عام ١٣٢ هـ بعد الثورة على الأمويين بقيادة أبى مسلم الخراسانى وعلى أكتاف الفرس وبزعم انتزاع الخلافة من الأمويين الغاصبين وردها لأصحابها الشرعيين من آل البيت النبوى إلا أن العباسيين قاموا بخداعهم واستأثروا بالحكم والخلافة زاعمين أنها حقهم لاحق العلويين، واعتلى أول الخلفاء العباسيين أبو العباس السفاح " كرسى الخلافة العباسية وأصبح خليفة المسلمين الأول فى دولة بنى العباسى إلا أنه لم يستمر فى

الحكم طويلاً فقد توفى عام ١٣٦ هـ وأخذ الشعراء يرثونه ويبكون عليه متفجعين معددين مناقبه وفضائله ذاكرين مثله وصفاته مظهرين ماامتاز به عصره من الأعمال الجليلة واصفين مصيبتهم فيه وصفاً ممتزجاً بروح الشكوى والأنين والألم، ومن هذا القبيل قول الشاعر أبى دلامة يرثيه :(١)

أمسيت بالأنبار يابن محمد ... لم تستطع عن عقرها تحويلا
ويلى عليك وويل أهلى كلهم ... ويلاً وعولاً فى الحياة طويلاً
فلتبكين لك النساء بعبرة ... ولتبكين لك الرجال عويلا
مات الندى إذ مُتَّ يابن محمد ... فجعلتَهُ لك فى التراب عديلا
إنى سألتُ الناس بعدك كلهم ... فوجدت أسمح من وجدت بخيلا
ألشقوتى أخرت بعدك للتى ... تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة ... بالله ما أعطيت بعدك سولا

نجد "أبا دلامة" يرثى خليفته ويبكى عليه بكاءً حاراً ويندبه ندباً رائعاً وكله مشاعر صادقة وفيه تجاه الخليفة يبكي عليه ويستبكى عليه كذلك، ويصور عظم مصيبته وهول فجيعته فى الخليفة الذى مات ومات معه الندى والجود فلم يعد هناك بعده من يسأله فيعطيه ولم يعد هناك بعده من هو أجود منه وأسمح، فالشاعر صادق فى رثائه لخليفته معبراً عن مشاعره بكل الصدق والوفاء والولاء له حتى أنه كان يتمنى الموت قبله، فهو بعده شقى ذليل .

فالأبيات رائعة فى رثائها بارعة فى إحكام نسجها، توحطها العاطفة الصادقة والمشاعر الحزينة الجياشة مؤثرة تأثيراً عميق الأسى فيمن يسمعها، فقد أبكت هذه الأبيات جميع الحاضرين الذين كانوا يعزون ابنه المنصور فيه حيث أنشدها أبو دلامة فى هذا المجلس فأبكى الناس قوله"(٢) ولاغرابة فى أن يبكى أبو دلامة بشعره الناس

---

(١) ص١٢١١ تجريد الأغانى القسم الأول .
(٢) ص٥٤ طبقات الشعراء لابن المعتز .

فقد كان من الشعراء المجيدين في هذا الفن الشعري، وكثيراً مابكى السفاح ورثاه وأبنه تأبيناً حاراً بكل عواطفه الصادقة ومشاعره الجياشة وشاعريته الأصيلة .

ونرى الشاعر العباسي "حماد عجرد" يرثى "محمداً بن أبى العباسي السفاح" بقوله :(١)

ياسمـى النبـى يابن أبـى العبـ	ـاسـى حققـت عندى المحـذورا
سلبتنـى الهمـوم إذ سلبـت منـ	ـك سـرورى فلست أرجو سـرورا
ليتنـى متُّ حيـن مـت ألا بـل	ليتنـى كنـت قبلـك المقبـورا
أنـت ظلّلتنـى الغمـام نعمـا	ك ووطـأت لـى وطاءً وثيـرا
لـم تـدع إذ مضيت فينا نظيرا	مثـل مالـم يـدع أبوك نظيـراً

يرثى الشاعر محمداً بن أبى العباس السفاح، مصدراً أبياته بنسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم لتشريفه وتعظيمه بهذا النسب النبوى، ثم يصور حزنه على هذا الفقيد وهمومه التى جلبها عليه فراقه، ثم نراه يبالغ فى حزنه عليه لدرجة أنه تمنى الموت مثله بل إنه كان يتمنى أن يموت قبله، ثم يفصح الشاعر عن سبب حزنه هذا عليه وهو ماكان يلحقه من جود وكرم من المرثى .

ثم خلف "السفاح" أبو جعفر المنصور" الذى يعد المؤسس الفعلى للدولة العباسية، فهو الذى ضبط الدولة ورتب قواعدها وقنن القوانين فيها وبلغت الدولة فى عهده مبلغاً عظيماً من القوة والاستقرار والتقدم، إلا أنه توفى عام ١٥٨ هـ، فراح الشعراء يرثونه ويبكون عليه بكاءً حاراً، مثل : أبى دلامة الذى رثاه بقصيدة جمع فيها بين رثائه وتهنئة المهدى بتوليه الخلافة بقوله :(٢)

---

(١) ص١٦٠٣ تجريد الأغانى ، القسم الثانى .

(٢) ص٦٠ طبقات الشعراء لابن المعتز .

عينـــان : واحدة ترى مســـرورة بإمامهـــا جذلـى وأخرى تذرف
تبكى وتضحك مرة، ويسوءهـا ماأبصـرت ويسرهـا ماتعـرف
فسوءهـا موت الخليفة محرمـاً ويسرهـا أن قام هـذا الأرأف
ماإن رأيت ولاسمعت كما أرى شعـراً أرجلـه وآخـر أنيـف
هلـك الخليفـة ياالأمـة أحمـد فأتاكـم مـن بعـده من يخلف
أهـدى لهـذا الله فضل خلافة ولـذاك جنـات النعيـم تزخرف
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم واستشرفوا لمقام ذا وتشرفوا

هذه المرثية تدل على براعة الشاعر ومقدرته الفائقة وتملكه من أدوات التعبير وناصيته الشعر بجميع فنونه وأغراضه، حيث جمع بين الحزن والفرح، والرثاء والتهنئة فى قصيدة واحدة وهذا النوع من الشعر لايقدر عليه إلا مجيد فنان، حيث يعد الجمع بين التعزية والتهنئة من أصعب الرثاء على الشاعر كما يقول ابن رشيق : "ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة فى موضع، قالوا لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية حتى أتى عبيد الله بن همام السلولى فدخل وفتح للناس باب القول"[١] .

ومن الرائع كذلك أننا لانرى الشاعر يجعل للرثاء أبياتاً وللتهنئة أبياتاً مستقلة بل نراه يجمع بين التعزية والتهنئة فى كل بيت من الأبيات ويذكر المعنين فى بيت واحد، مما زادها روعة وبراعة. وقد أشاد بها ابن المعتز واستحسنها وجعلها من جيد الشعر[٢]، كما أشاد بها كذلك الدكتور شوقى ضيف واستحسنها وجعلها من النوادر"[٣] .

---

(١) ص١٥ جـ٢ العمدة .
(٢) ص٦٠ طبقات الشعراء .
(٣) ص٢٩٧ العصر العباسى الأول .

رثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة :

عرفت كلمة "وزير" فى اللغة العربية قبل العصر العباسى الأول حيث ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قول الله تعالى على لسان موسى فى سورة طه : "واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى"(١) إلا أنها كانت تطلق على المؤاذر والنصير والمساعد، فلما جاء العصر العباسى الأول أطلقوا هذا الإسم على المستشار الأول للخليفة وسموه : وزيراً فالوزير باعتباره منصباً سياسياً وكونه بهذا المسمى على المستشار الأول للخليفة لم يعرف إلا فى دولة العباسيين، فلم يعرفه الأمويون ومن سبقهم، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً"(٢)، فلم تكن كلمة وزير بدعاً فى العصر العباسى إنما المبتدع هو إنشاء هذا المنصب وإعطاء صاحبه السلطة الرسمية وتلقيبه بهذا الإسم"(٣)، وقد اتخذ الخلفاء العباسيون معظم وزرائهم من الفرس فقلما نجد وزيراً غير فارسى وهذا أمر طبيعى فالدولة العباسية نفسها قامت بسواعد الفرس وبنصرتهم مما جعل الخلفاء العباسيين يقربونهم ويقدمونهم لهذا المنصب الخطير فى دولتهم، وكان "أبو سلمة الخلال" الفارسى الأصل هو أول وزير فى تاريخ الدولة العباسية حيث اتخذه أبو العباس السفاح وزيراً له ثم استوزر من بعده خالد البرمكى وتتابع الخلفاء العباسيون فى تقليد الموالى من الفرس هذا المنصب الكبير ومن هؤلاء الوزراء : "أبو أيوب الموريانى" وزير المنصور "ويعقوب بن داود" وزير المهدى و "يحى بن خالد البرمكى " وزير الرشيد" والفضل بن سهل " "والحسن ابن سهل" و "أحمد بن يوسف"

---

(١) الآيات : من ٢٩ - ٣٢ .
(٢) ص١١٠ ابن الطقطقى .
(٣) ص١٦٥ جـ١ ضحى الإسلام لأحمد أمين .

وزراء المأمون ، "والفتح بن خاقان" وزير المتوكل وغيرهم حيث كان أكثر الوزراء فى هذا العصر من الفرس وظلوا على هذه الحالة إلى أن أخذ المعتصم يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فاتجه نحو العنصر التركى الذى أخذ يقبض على صنائع الأمر خاصة منذ عهد الخليفة "المتوكل" الذى قتل على أيديهم وأصبح لهم السلطان والغلبة منذ عهد ابنه المنتصر حتى أنهم كانوا هم الذين يجبرون الخليفة على تعيين ولى عهده حسب رغبتهم وهواهم .

وبجوار الوزراء جمع كبير من القواد والولاة وكبار رجال الدولة العباسية أمثال : "خازم بن خزيمة " قائد السفاح والمنصور من بعده، والفضل البرمكى وجعفر بن يحى البرمكى قائد المنصور : و "يزيد المهلبى" قائد المنصور و "معن" و "يزيد بن مزيد الشيبانى" قائد المهدى وسعيد بن حرب وإبراهيم بن الأغلب وطاهر بن الحسين وعبيد الله بن طاهر بن الحسين "وعمير بن الوليد" "وعيسى بن يزيد الجلودى" "ومحمد بن حميد الطوسى" "وخالد بن يزيد الشيبانى" وابن الزيات" والأفشين" وأبو دلف العجلى" ومحمد بن يوسف" "ومحمد بن عبد الله بن طاهر" وأبو أحمد طلحة" وأبو الساج" وغيرهم الكثير والكثير من هؤلاء القواد العظام الذين ظهروا أيام حكم العباسيين .

ومن الطبيعى أن يبكى شعراء العصر هؤلاء الوزراء والقواد ويرثونهم حينما يفارقون الحياة إلا أنه كان من بينهم من رثاه الشعراء وأبنوه وبكوا عليه بكاءً حاراً واستحوذ على قسم كبير من شعر الرثاء يفوق مثله أمثال : "جعفر البرمكى" ومعن بن زائدة" الشيبانى" ويزيد بن مزيد الشيبانى "وحميد الطوسى" ومحمد بن حميد الطوسى: وابن الزيات "وعبد الله بن طاهر" وغيرهم من وزراء العصر وولاته وقادته الذين بكاهم الشعراء وأبنوهم تأبيناً حاراً .

وقد راح شعراء العصر يرثون هؤلاء الوزراء والقواد والولاة رثاءً حاراً معددين فضائلهم ومناقبهم مشيدين بأعمالهم السابقة

وأمجادهم السالفة مصورين عظم الفجيعة وهول المصيبة التى أحلت بفقد هذا وفناء ذلك واصفين المصيبة وصفاً يمتزج بالأنين والأسى مكثرين من صفات المرثى وسماته إلا أن هذه الصفات كانت تتغير وفقاً لتغير منصب المرثى ووظيفته ومكانته ولكنها كانت فى أغلبها نفس الصفات التى كانت تستخدم فى شعر المدح. فرثاء الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة يلتقى مع مدحهم فى كثير من الخصائص والسمات بل إننا لانبالغ إذا قلنا إن مدار شعر الرثاء للوزراء وكبار رجال الدولة على المعانى التى تبرز فى قصيدة المدح لهم .

ولكن ليس معنى هذا أن كل رثاء الوزراء والقواد والولاة ذكر لفضائل أو تعداد لمناقب أو ثناء ومدح بل كان ذلك هو الأعم الأغلب فى رثائهم بجوار هذا الرثاء الباكى الحزين الذى يصور الفجيعة ويظهر الأسى والحسرة ويدعو إلى سيل الدموع لفقد وزير أو قائد أو والٍ .

ومن جيد الرثاء الذى رثى به الوزراء والقواد والولاة مانظمه "مروان بن أبى حفصة" يرثى به "معناً بن زائدة الشيبانى" (قائد المنصور المغوار وواليه على اليمن ثم سجستان) حيث يقول مروان يرثيه رثاء حاراً بقصيدة تعد بحق من عيون الرثاء فى عصره :

مضى لسبيله معنٌ وأبقى	مكارم لن تبيد ولن تُنالا[1]
كأن الشمس يوم أصيب معنٌ	من الإظلام ملبسة جلالا[2]
هو الجبل الذى كانت نزار	تهدّ من العدو به الجبالا
وعطلت الثغور لفقد معنٍ	وقد يروى بها الأسل النهالا[3]

---

(١) تبيد : تغنى .
(٢) الجلال : جمع الجل وهو الغطاء الذى تلبسه الدابة لتعان به .
(٣) الأسل النهال : الرماح المتعطشة إلى الدماء .

«رثاء الدول والمدن»

رثاء الدول :

يعد رثاء الدول الزائلة فى الأدب العربى من موضوعات الرثاء القديمة التى عرفها الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، كرثاء الشاعر الجاهلى "الأسود بن يعفر" لدولة المناذرة إلا أن هذا اللون من الرثاء كان قليلاً فى الأدب العربى قبل العصر العباسى الأول حيث لم يرد إلينا من هذا اللون إلا نماذج قليلة تدل على قلة هذا اللون من الرثاء فى تلك الأعصر السابقة، فلما زالت الدولة الأموية وسقطت من التاريخ وحكم العباسيون وقامت دولتهم نمى هذا اللون وازدهر إلى حد ما عما كان عليه قبل ذلك وكانت الدولة الأموية موضوعاً من موضوعات الرثاء للدول الزائلة فى العصر العباسى الأول حيث بكاها بعض الشعراء فى العصر العباسى وأعلنوا عن حزنهم وألمهم لزوالها نادبين إياها مؤبنين خلفاءها فى شعر رثائى حزين فيه البكاء والعويل والحسرة والأنين على الدولة العربية التى سقطت وسقط معها خلفاؤها .

ومن الشعراء الذين بكوا على الدولة الأموية ورثوها رثاء حاراً فى شعر صادق العاطفة الشاعر "أبو عدى عبد الله بن عمر العبلى" - أحد الشعراء المخضرمين الذين أدركوا العصرين : الأموى والعباسى - وأخذ يرسل الدمع عليها مدراراً معلناً حزنه وأسفه لما أصاب الدولة الأموية من سقوط وزوال من على خريطة التاريخ، ومن قوله فى رثائها قصيدته السينية التى استهلها بقوله :

تقول أمامة لما رأت ... نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى ... لدى هجعة الأعين النعس

ثم مضى يرثى الدولة الأموية رثاء حاراً كله لوعة وحسرة على ماأصابها . حتى آخر القصيدة [١] .

ويحكى صاحب كتاب الأغانى : أن "عبد الله والحسن ابنى الحسين (الإمامين العلويين) قصداً أبا عدى الشاعر واستنشداه هذه القصيدة فأنشدها فلما أتى عليها بكى "محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن : أتبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ماتريد ؟ فقال : والله ياعم لئن كنا نقمنا على بنى أمية مانقمنا فما بنوا العباسى إلا أقل خوفاً لله منهم وإن الحجة على بنى العباسى لأوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر - المنصور - ثم أعطوا أبا عدى مالاً كثيراً وانصرفوا"[٢] .

وللشاعر قصيدة أخرى رائعة فى رثاء الدولة الأموية أخذ فيها يبكى الدولة وينعى إلى الدنيا زوالها مشيداً بها وبخلفائها الأمويين إشادة عظيمة مؤبناً إياهم تأبيناً حاراً قوياً رائعاً وكله ألم وحسرة على ملكهم الزائل ودولتهم التى سقطت ومما جاء فيها قوله :

فبنوا أمية خير من وطىء الثرى　　　شـرفاً وأفضل ساسـة أمراؤهـا

ومن أهم الشعراء الذين رثوا الدولة الأموية الزائلة وبكوها بكاء حاراً وأذرفوا الدمع عليها أنهاراً الشاعر المخضرم أبو العباسى الأعمى السائب بن فروخ - أحد الشعراء الذين أدركوا الدولتين : الأموية والعباسية - وكان ميالاً بطبعه وهواه إلى الأمويين وكثيراً مامدحهم فى حياتهم وأشاد بدولتهم ♦

---

(١) ص١٠٥ جـ١٠ الأغانى .

(٢) نفس المصدر .

فالدولة الأموية والدولة الفارسية الزائلة كانتا موضوعاً مهماً لشعر رثاء الدول الزائلة فى العصر العباسى الأول حيث لم يتضمن رثاء الدول فى الشعر العباسى فى العصر الأول غير هاتين الدولتين الزائلتين، وأنا لاأتفق مع الدكتور شوقى ضيف[١] أو غيره[٢] من الباحثين والدارسين الذين جعلوا رثاء البرامكة "من رثاء الدول الزائلة، وكيف يكون ذلك كذلك ولم يكن للبرامكة دولة باسمهم تسمى "دولة البرامكة" فالدولة كانت دولة عباسية وخلفاؤها العباسيون ومالبرامكة إلا بعض عمالها ولم تزل الدولة بزوالهم بل بقيت بعد فنائهم مدة طويلة، ولايعد فناء شخصى أو أشخاص فناء لدولة وزوالاً لها، فرثاء البرامكة رثاء سياسى شخصى يدور حول رثاء شخص أو أشخاص ذوى منصب سياسى فى نظام حكم الدولة ليس إلا ولايعد من رثاء الدول الزائلة .

وهكذا عرف الشعر العباسى فن رثاء الدول الزائلة وأجاد فيه إجادة عظيمة وإن لم يبلغ مبلغ رثاء الدول والممالك الزائلة فى العصر الأندلسى حيث فاق الأندلسيون العباسيين فى هذا اللون من الرثاء كماً وكيفاً، فشعر الأندلسيين يزخر بالكثير من القصائد التى تتضمن رثاء الدول والممالك الزائلة فضلاً عن أن هذا الرثاء الأندلسى أكثر روعة وأشجى حزناً وأصدق عاطفة وأحر مشاعر من رثاء العباسيين للدول الزائلة، وهذا أمر طبيعى فقد زالت الدول والممالك فى بلاد الأندلس على يد المسيحيين الأسبان وأفنوا معالم الإسلام والمسلمين منها وأصبحت دولاً مسيحية صليبية بعد أن كانت دولاً وممالك إسلامية يرفع من فوق مآذنها نداء الإسلام وشعار المسلمين أما الدولة الأموية فكانت دولة إسلامية تلتها دولة إسلامية فى ربوعها

---

(١) ص٤١ الرثاء - فنون الأدب العربى .
(٢) ص١٨٢ جـ٥ نهاية الأرب .

بعد زوال الدولة الأولى والدولة الفارسية حلت محلها الدولة الإسلامية العباسية. فالفرق واضح ظاهر والباعث مختلف بين هذا وذاك .

رثـاء المـدن :

يعد رثاء المدن من موضوعات الرثاء الجديدة المبتكرة التى استجدت فى العصر العباسى الأول وأصبح رثاء المدن منحى جديداً فى شعر الرثاء اتجه إليه شعراء العصر بفطرتهم وخيالهم وأضحى إطاراً جديداً تحرك فيه الشعراء لأسباب تتعلق بالنقلة الحضارية فى العصر العباسى الأول حيث تعلق الشعراء بمدنهم وارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً "فإن المدينة كانت فى العصر العباسى قد صارت تمثل كياناً له معنى ووجود فى نفوس أهلها وإن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ومعنوية وقد تولد فى نفوسهم نتيجة لذلك شعور إنسانى نبيل إزاء المدينة عبروا عنه فى صدق وحرارة عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً لديهم"(١).

لهذا ظهر فى العصر العباسى الأول إطار مبتكر للرثاء هو رثاء المدن حيث كان إطاراً مبتكراً لم يكن له أصول فى الأدب العربى قبل العصر العباسى، فلم يعرف شعراء العصر الجاهلى هذا الإطار من الرثاء كما لايعرفه الشعراء الإسلاميون والأمويون كذلك، ولعل ذلك يرجع إلى عدم إلحاق الخراب والدمار بالمدن الإسلامية فى هذه العصور السابقة مثلما حدث لها فى العصر العباسى الأول، فضلاً عن أن علاقة العربى بمدينته فى العصور السابقة لم تتوثق بالشكل الذى كان عليه الحال فى العصر العباسى

---

(١) ص٣٦٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن . د / عز الدين إسماعيل . طبع : دار المعارف عام ١٩٨٠ م .

حيث توثقت العلاقة توثقاً شديداً بين الإنسان والمدن وارتبط بها ارتباطاً تاماً وثيقاً .

وكانت أول مدينة رثاها الشعراء هي مدينة "بغداد" حيث كانت أول مدينة عربية أصابها الدمار والخراب وذلك في الصراع الذي حدث بين الخليفة المأمون وأخيه الأمين، وفيه حاصرت جيوش المأمون المدينة "ونزل زهير بن المسيب الضبي قصر رقة كلوا ذي ونصب المجانيق[١] والعرادات[٢] واحتفر الخنادق وجعل يخرج في الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمي بالعرادات من أقبل وأدبر ويعشر[٣] أموال التجار ويجبي السفن وبلغ من الناس كل مبلغ وبلغ أمره طاهراً وأتاه الناس فشكوا إليه مانزل بهم من زهير بن المسيب وبلغ ذلك هرثمة فأمده بالجند ونزل هرثمة نهر بين وجعل عليه حائطاً وخندقاً وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار . فذكر عن الحسين الخليع أنه قال : لما تولى طاهر البستان بباب الأنبار دخل محمداً أمر عظيم من دخوله بغداد وتفرق ماكان في يده من الأموال وضاق ذرعاً وتحرق صدراً فأمر ببيع كل مافي الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها إليه لأصحابه وفي نفقاته وأمر حينئذ برمي الحربية بالنفط والنيران والمجانيق والعرادات يقتل بها المقبل والمدبر .. ولما اشتدت شوكة طاهر على محمد وهزمت عساكره وتفرق قواه كان فيمن استأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم فلحق به فولاه ناحية البغيين والأسواق وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كل ماغلب عليه من الدور والدروب

(١) المجانيق : آلة ترمي بها الحجارة (معربة) .

(٢) العرادات : جمع العرادة وهي أصغر من الآلة السابقة .

(٣) يعشر : يأخذ منهم العشر .

وأمده بالنفقات والفعلة والسلاح وأمر الحربية بلزومه على النوائب ووكل بطريق دار الرقيق وباب الشام واحداً بعد واحد وأمر بمثل الذى أمر به سعيد بن مالك وكثر الخراب والهدم حتى درست محاسن بغداد"(١) .

وهكذا أصبحت "بغداد" هدفاً للتدمير والدمار من كلا الطرفين المتحاربين حتى أصبحت خراباً بعد عمران وعم الدمار والهدم كل مافيها من البنيان والإنسان على السواء حتى أوحشت بغداد ودرست معالمها وفنيت محاسنها .

فانطلق شعراء العصر يرثونها ويبكون عليها ويذرفون الدمع أنهاراً لما أصاب مدينتهم التى تحولت خراباً وعمتها الوحشة وهى التى طالما نعمت بالأمن والأمان ونعم فيها أهلوها واستظلوا بظلها ، وراح كثير من شعراء العصر يرثيها ويندبها ويتفجع عليها ويتوجع لما أصابها وماحرق من قصورها وديارها وأريق من دماء أهلها الآمنين .

وفى رثائها يقول "عمرو بن عبد الملك العترى الوارق" :(٢)

مـن ذا أصابـك يابغـداد بالعيـن	ألـم تكونـى زمانـاً قـرة العيـن
ألم يكن فيـك قـوم كان مسكنهـم	وكـان قربهـم زينـاً مـن الزيـن
صـاح الغـراب بهم بالبين فافترقـوا	مـاذا لقيـت بهـم من لوعة البيـن
استـودع اللـه قومـاً ماذكرتهـم	إلا تحـدر مـاء العيـن من عينـى
كانـوا ففرقهـم دهـر وصدعهـم	والدهـر يصـدع مابيـن الفريقيـن

(١) ص٤٤٥ - ٤٤٧ جـ٨ تاريخ الطبرى . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثالثة ، دار المعارف .

(٢) ص٤٤٧ جـ٨ نفس المصدر .

ومن أهم المدن التى رثاها شعراء العصر العباسى الأول مدينة "البصرة" حيث أحلت بها وبأهلها نكبة فادحة على أيدى الزنج وقائدهم "على بن محمد" الذى ادعى أنه ينمتى إلى "زيد بن على بن الحسين بن على ابن أبى طالب" والذى قام بثورة عنيفة ضد الخلافة العباسية دمر خلالها الأخضر واليابس وأقلق الخلافة العباسية وجعلها تعيش فى فزع ورعب وحروب عنيفة طوال أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ظلت فيها السيوف متشابكة منذ عام ٢٥٦ إلى عام ٢٧٩ من الهجرة، وقد استطاع هذا الزنجى الثائر أن يجمع حوله الآلف من الزنج بزعم أنه قام بثورته لتخليصهم من ربقة العبودية والذل وسرعان ماتجمعوا حوله وخاض معهم وبهم حروباً قاسية استباح فيها كل محرم وشنيع حيث استباح استرقاق الأحرار حتى ولو كانوا من البيت العلوى مما يؤكد كذب دعوته وكذب نسبه إذ انه لو كان علوياً كما زعم لما استباح استرقاق العلويات، ولو كان هدفه تخليص العبيد من الذل والعبودية مااستباح استرقاق الأحرار .

المهم أن صاحب الزنج هذا قد استطاع أن يكون جيشاً من الزنج أخذ به يغير على المدن العباسية وينهب الأموال والدواب وأحكم حصاراته على مدينة البصرة بعد إغاراته الكثيرة التى شنها عليها حتى جاء عام ٢٥٨ هـ فأوقع بالبصرة وأهلها وقعة عظيمة خرب فيها المدينة ودمر بناءاتها وقتل الكثير من أهلها، وأعمل فيها السلب والنهب والقتل وإشعال النار"(٢) .

---

(١) ص٣٧٣ - ٣٧٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص٤٨١ جـ٩ تاريخ الطبرى .

ويقدر عدد القتلى فى هذه المعركة بنحو ثلثمائة ألف قتيل بين ذكر وأنثى وأحرق مبانيها ومسجدها الجامع واختفى الناس ذعراً فى الدور والآبار وكانوا يظهرون بالليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها وكذلك الفئران والسنانير وأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيىء وكان إذا مات نهم الواحد أكلوه[1]" .

واستغاث أهل "البصرة" بالخلافة والمسلمين جميعاً فى أرجاء الدولة ويبكى الشعراء المدينة ورثوها رثاءً عنيفاً ثائراً مصورين مآسى المدينة واصفين خرابها داعين إلى الهمة والنجدة لإنقاذ المدينة المنكوبة، وأثارت هذه النكبة المروعة قلوب الشعراء جميعاً فراحوا يبكون ويذرفون الدمع أنهاراً على مدينتهم وأهلها اليائسين . وكان "ابن الرومى" فى مقدمة هؤلاء الشعراء الذين بكوا البصرة وصور مأساتها تصويراً حزيناً رائعاً حيث أثارته نكبة المدينة وهزته هزاً من الأعماق فراح يرثيها ويبكى عليها بدموع غزار فى قصيدة رائعة طويلة بلغت ستة وثمانين بيتاً، ويقول فى مستهلها :[2]

ذاد عــن مقلتــى لذيــذ المنام	شغلهــا عنــه بالدمــوع السجام
أى نــوم من بعــد ماحل بالبصـ	ـرة مــن تلكم الهنات العظام
أى نــوم من بعد ماانتهك الزنـ	ـج جهــاراً محــارم الإسلام
إن هــذا مــن الأمــور لأمــر	كــاد أن لايقــوم فــى الأوهــام
لرأينــا مستيقظيــن أمــوراً	حسبنــا أن تكــون رؤيـا منــام
أقــدم الخائــن اللعيــن عليها	وعلــى اللـــه أيمــا إقــدام
وتسمـــى بغيــر حــق إمامــاً	لاهــدى اللـــه سعيــه من إمام

---

(١) ص١١٩ جـ٤ مروج الذهب للمسعودى .

(٢) ص٢٣٧٧ - ٢٣٨٠ جـ٦ ديوان ابن الرومى، تحقيق د/ حسين نصار طبع : الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨١ م .

فقد أقلقت النكبة ابن الرومى وأوجعت قلبه وأوقعت الحسرة فى نفسه فراح يبكى على البصرة وأهلها بكاء مراً مستمراً لم تتوقف عيناه عن الدموع ولم يستطع أن يهدأ أو يركن فى منامه بعد هذه الفعلة الشنيعة التى أقدم عليها الخائن الدعى صاحب الزنج .

ثم راح الشاعر يبكى البصرة وينوح عليها نواحاً مؤثراً ويندبها ندباً حاراً مولولاً معولاً عليها مصوراً حالتها وماكانت عليه من جمال وعظمة قبل نكبتها وتخريبها فيقول :

لهف نفسى عليك أيتها البصـ ـــرة لهفاً كمثل لهب الضرام
لهف نفسى عليك يامعدن الخيـ ـرات لهفاً يعضنى إبهامى
لهف نفسى عليك يافرضة البلـ ـدان لهفاً يبقى على الأعوام
لهف نفسى لجمعك المتفانى لهف نفسى لعزك المستضام

نرى ابن الرومى يتحسر على البصرة ويصف حالتها قبل أن تصاب بمصيبتها وتتكب بنكبتها فقد كانت مصدر الخيرات وكانت قبة الإسلام وكعبة العلم ومهد العلماء ومستقر العز والبهجة، كل ذلك يصفه ابن الرومى وكله أسى وحسرة على ماأصاب البصرة وأحل بأهلها من فوادح ومصائب وأهوال .

ونرى ابن الرومى يستخدم أسلوب الموازنة فى قصيدته ويعتمد عليه اعتماداً كبيراً فى تصوير المأساة ووصف المصيبة، حيث وصف البصرة قبل خرابها فى الأبيات السابقة ثم تلاها بوصف حالتها بعد خرابها وتصوير ماحل بها وبأهلها على أيدى الجناة من الزنج فى مشاهد حية متعاقبة تبرز المأساة إبرازاً واضحاً وتصور عظم المصيبة تصويراً دقيقاً، فيقول مصوراً البصرة بعد خرابها ودخول الزنج إليها وماأحدثوه فيها :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليـ ـل إذ راح مدلهم الظلام

طلعوا بالمهندات جهراً فألقت ... حملها الحاملات قبل التمام
أى هول رأوا بهم أى هول ... حق منه تشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب ... كم أغضوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحسام؟
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً ... ترب الخد بين صرعى كرام؟
كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يعلى بصارم صمصام؟
كم مفدى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه هناك حامى؟
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشبا السيف قبل حين الفطام؟
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهراً بغير اكتتام؟
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزاً وجهها بغير لثام؟
صبحوهم فكابد القوم منهم ... طول يوم كأنه ألف عام
ألف ألف فى ساعة قتلوهم ... ثم ساقوا السباء كالأغنام
من رآهن فى المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقاسم وسط الز ... نج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن إماءً ... بعد ملك الإماء والخدام
رب بيع هناك قد أرخصوه ... طال ما قد غلا على السوام
رب بيت هناك قد أخرجوه ... كان مأوى الضعاف والأيتام
رب قصر هناك قد دخلوه ... كان من قبل ذلك صعب المرام
رب ذى نعمة هناك ومال ... تركوه محالف الإعدام
رب قوم باتوا بأجمع شمل ... تركوا شملهم بغير نظام
عرجا صاحبى بالبصرة الزهـ ... ـراء تعريج مدنف ذى سقام
فاسألاها ولا جواب لديها ... لسؤال ومن لها بالكلام؟
أين فلك فيها وفلك إليها ... منشآت فى البحر كالأعلام؟
أين تلك القصور والدور فيها ... أين ذاك البنيان ذو الأحكام؟
بدلت تلكم القصور تلالاً ... من رماد ومن تراب ركام

وهكذا عرف شعر الرثاء فى العصر العباسى الأول "رثاء المدن" وهو رثاء جديد وإطار مبتكر استجد فى العصر العباسى الأول "ومهما يكن من شيء فإن رثاء المدن فى العصر العباسى كان يمثل موقفاً جديداً لشاعر العصر فرضته عليه ظروف الحياة فى المدينة وارتباطه الوجدانى بها إلى جانب الأحداث والظروف السياسية الداخلية التى عرفها ذلك العصر. وإذ لم يكن فى تراثه الشعرى القديم تقاليد فنية راسخة لمثل هذا الرثاء كان عليه أن يعول على نفسه فى ابتكار الأطر المعنوية والفنية التى يصوغه فيها"(١).

ومع أن رثاء المدن يعد رثاء جديداً فى الأدب العربى ابتكر منذ العصر العباسى الأول رأينا بعض الباحثين لايقرون ذلك ويعتبرون الفضل فيه لأهل الأندلس كما ذهب إلى ذلك الدكتور أحمد أمين حيث يقول : "لقد رأينا مدناً فى المشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر تستوجب الرثاء والبكاء كما سقطت بغداد فى يد التتار وأزالوا كل مافيها من مظاهر مدنية وحضارة، وفعل التتار فيها مالا يقل عما فعله الأسبانيون فى الأندلس، وغزا هولاكو وتيمور لنك ونحوهما بلاد الشام وأسقطوها بلداً بلداً فما رأينا عاطفة قوية ولارثاء صارخاً ولاأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً كالذى رأيناه فى الأندلس، فإن قلنا إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى وأشد لم نبعد عن الصواب"(٢).

فإننا نرى الدكتور أحمد أمين فى حديثه يتجاهل تماماً رثاء المدن فى العصر العباسى الأول ولم يشر إلى ذلك لامن بعيد ولامن قريب حيث تعرض فى أول الحديث لسقوط بغداد فى يد التتار حينما

---

(١) ص٣٧٨ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص٢٨٧ جـ٣ ظهر الإسلام، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية.

أزالوا كل مافيها من مظاهر المدينة والحضارة وكان هذا السقوط فى أواخر العصر العباسى بينما لم يتعرض للتدمير والخراب الذى أصاب بعض المدن فى العصر العباسى الأول مثلما أصاب : "بغداد" "والبصرة" وسر من رأى "والمدينة المنورة" ومكة المكرمة" وراح شعراء العصر يبكونها بكاءً قوياً صارخاً مسجلاً التاريخ مصوراً هذا التدمير والخراب تصويراً مفصلاً رائعاً بكل اللوعة والحسرة وصدق العاطفة والمشاعر الصادقة الجياشة، والدكتور أحمد أمين - وكما هو واضح من كلامه - يثبت وجود هذا اللون من رثاء المدن بعد سقوط بغداد فى يد التتار ويرى أنه لم يرق إلى مستوى رثاء المدن عند الأندلسيين بينما يتجاهل تماما الحديث عن رثاء المدن فى العصر العباسى الأول وكأن هذا العصر لم يعرف هذا اللون من الرثاء وكأنه لم يعرف إلا بعد سقوط بغداد فى يد التتار وهذا يخالف الصواب والحقيقة فرثاء المدن عرف منذ العصر العباسى الأول وإليه يرجع الفضل فى وجود هذا اللون من الرثاء فى أدبنا العربى ثم احتذته العصور التالية سواء كانت فى المشرق أو المغرب خاصة عند الأندلسيين الذين برعوا براعة فائقة فى نظم هذا اللون وإن كان قد سبقهم إليه شعراء العصر العباسى الأول .

فرثاء المدن فن جديد استجد فى العصر العباسى الأول واخترعه شعراء العصر وأبدعوا فيه إبداعاً عظيماً وقد ذكرنا بعض القصائد الرائعة التى تثبت هذا القول عند حديثنا عن رثاء "بغداد "والبصرة"وغيرهما من المدن العباسية التى رثاها شعراء العصر وبكوا عليها بكاءً حاراً ملتهباً لايقل روعة عن رثاء المدن فى الأندلس وإن كان رثاء المدن فى الأندلس أكثر كماً وأكثر صراخاً وعويلاً وأعظم حسرةً وفجيعة حيث ذهبت المدن الإسلامية فى الأندلس وانتزعت من أيدى المسلمين على يد الأسبان المسيحيين الذين أزالوا كل مافيها من مظاهر إسلامية وكل من فيها من المسلمين، فالمصيبة التى

أصابت المدن الأندلسية كانت أكبر وأعظم وأفدح من المصائب التى أصابت بعض المدن فى العصر العباسى الأول، فقد بكى شعراء الأندلس مدناً إسلامية قد دمرت وخربت وأبيد كل مافيها ومن فيها من المسلمين على أيدى أعدائهم بينما ظلت المدن العباسية - على الرغم مما أصابها من تدمير وخراب - فى أيدى المسلمين وبقيت فيها كل مظاهر الإسلام وعبادة الله تعالى قائمة.

فمن هنا كان رثاء الأندلسيين لمدنهم أقوى وأروع وأكثر من رثاء العباسيين لمدنهم وإن كان رثاء العباسيين لمدنهم أيضاً رائعاً قوياً صارخاً ولكن ذلك لاينفى سبق العباسيين لهذا اللون من الرثاء وابتداعهم له وإجادتهم فيه .

وكما تجاهل الدكتور أحمد أمين رثاء المدن فى العصر العباسى الأول تماماً رأيناه - ومن خلال حديثه الذى ذكرناه - ينفى هذا اللون من الرثاء - فى أول حديثه - عن دول المشرق كما يتجلى فى قوله : "فما رأينا عاطفة قوية ولارثاء صارخاً ولاأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً" .

وهذا يخالف الواقع والحقيقة فلدول المشرق بعد العصر العباسى الأول رثاء رائع فى رثاء المدن - وإن كان يقل روعة عن رثاء الأندلسيين والعباسيين فى عصرهم الأول لضعف الشعر العربى بوجه عام فى عصر الغزو التتارى إلا أنهم قد رثوا مدنهم وعرفوا هذا اللون في شعرهم كرثاء الشاعر شمس الدين الكوفى لمدينة بغداد" ورثاء الشاعر علاء الدين العزولى لمدينة "دمشق" وغير ذلك مما هو موجود فى الشعر العربى لهذه العصور .

كذلك وقع الدكتور أحمد أمين فى التناقض والخلط فى أول حديثه وآخره حيث نفى فى أول الحديث رثاء المدن عند دول المشرق بينما نراه يعترف ضمناً فى آخر حديثه بوجود هذا اللون عندهم. فقوله : "فإن قلنا : إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى

وأشد لم نبعد عن الصواب قد يبدو متعارضاً مع قوله : فما رأينا رثاء صارخاً ولاأدباً رقيقاً ولاتاريخاً مسجلاً لأن القول الأخير يعترف بوجود هذا اللون على نحو أقل من لون الأندلس والقول الأول يكاد يحكم بعدمه مع أن المتصفح لكتب الأدب والتاريخ يرى رثاء المدن ذائعاً فى كل محنة" كما يقول أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى"(١) .

فرثاء المدن فن جديد ابتكر فى العصر العباسى الأول وابتدعه الشعراء فى ذلك العصر وأبدعوا فيه إبداعاً عظيماً، وقد اعترف بذلك كثير من الباحثين والناقدين، ففضلا عن الدكتور محمد أحمد البيومى - كما ذكرنا ذلك من قبل - نرى الدكتور شوقى ضيف يرى سبق العباسيين لهذا اللون من الرثاء على الأندلسيين فى قوله : "ولم يحتدم فى الأندلس رثاء الدول الزائلة وبكائها فحسب فقد احتدم معه رثاء المدن التى كانت تتساقط فى أيدى المسيحيين الإسبانيين وليس هذا الضرب من الرثاء جديدا فقد بكى الخريمى، وغيره بغداد حين رماها طاهر بن الحسين قائد المأمون بالمجانيق فى حربه لأخيه الأمين نادبين ماحرق من قصورها وأحيائها وأريق من دماء أهلها. وبكاء ابن الرومى للبصرة حين خربها الزنج وسفكوا دماء أهلها ذائع مشهور والمدينتان جميعاً لم تسقطا فى أيدى أعداء على نحو ماكانت تسقط مدن الأندلس ولافر أهلهما منهما إلى غير مآب ومن أجل ذلك كان بكاء الأندلسيين لمدنهم أكثر حرارة"(٢).

---

(١) ص٢١١ الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثر ، للدكتور/ محمد رجب البيومى . طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٢) ص١٦٢ فصول فى الشعر ونقده ، الطبعة الثانية . دار المعارف .

فالدكتور شوقى ضيف يرى سبق العباسيين فى هذا اللون من رثاء المدن وإن كان رثاء الأندلسيين لمدنهم أكثر حرارة تبعاً لعظم المصيبة وهول الفجيعة .

كذلك ذهب هذا المذهب الدكتور / عز الدين إسماعيل[١]، والدكتور جودت الركابى[٢] . وغيرهما من الباحثين والنقاد، وهو مانقره ونثبته ونراه رأياً صائباً .

ومما يتصل برثاء المدن اتصالاً مباشراً وثيقاً رثاء القصور فى العصر العباسى الأول وهو لون جديد من ألوان الرثاء ظهر فى هذا العصر وابتكره شعراؤه، حيث راح الشعراء يبكون القصور ويرثونها ويندبونها ندباً حاراً واصفين عظم المصيبة وهول الفجيعة التى أحلت بالقصور وصفاً ممزوجاً بالحزن والأسى معبرين عن مشاعرهم ومتأثرين تأثراً عظيماً بما حدث لها ومشاركين القصور همومها وفواجعها التى حلت بها ومصورين ماحدث للقصور من خراب ودمار واصفين المأساة وصفاً حزيناً فى براعة وروعة، ولعل أبرع شاعر من شعراء العصر العباسى الأول فى رثاء القصور هو "البحترى" حيث برع براعة معدومة النظير فى رثاء القصور وندبها والبكاء عليها وتصوير المصيبة التى حلت بها تصويراً رائعاً مجسداً، ومن هذا القبيل رثاؤه لقصر الخليفة المتوكل "الجعفرى" وهو القصر الذى قتل فيه الخليفة أمام البحترى وناله التخريب والإفساد أمام عينيه فيقول يرثيه:[٣]

محل على القاطول أخلق داثره ... وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره[٤]

كأن الصبا توفى نذوراً إذا انبرت ... تراوحه أذيالها وتباكره[٥]

---

(١) ص٣٦٤ فى الشعر العباسى الرؤية والفن .

(٢) ص١١٤ فى الأدب الأندلسى، الطبعة الرابعة .

(٣) ص١٠٤٥ جـ٢ ديوان البحترى .

(٤) القاطول: نهر من دجلة. أخلق: بلى. داثره: البالى. تغاوره: تحاربه .

(٥) تراوحه : تهب عليه آخر النهار . وتباكره : تهب عليه أول النهار .

شعر الغــزل

يعد شعر الغزل من أهم الأغراض القديمة وأكثرها شيوعا وازدهارا منذ العصر الجاهلي، حيث كان الشعراء الجاهليون يتغزلون في محبوباتهم ويقفون على ديارهن ويبكون الديار ويظهرون آلام حبهم وعظم أشواقهم تجاه هؤلاء المحبوبات، وقلما نجد قصيدة شعرية في أي فن آخر من فنون الشعر خالية من المقدمة التمهيدية التي تتحدث عن الحب وذكر الأحبة وبكاء الديار وذكر الآثار، فضلا عن وجود الغزل الحسي والعفيف بين طيات الغزل الجاهلي.

كما وجد الغزل بأنواعه الثلاثة: التقليدي والحسي والعفيف في العصر الإسلامي وبلغ من انتشاره أن نظم فيه بعض فقهاء المدينة المنورة مثل عروة ابن أذنية وعبيد الله بن عتبة وغيرهما من الفقهاء[1].

وظهرت دواوين شعرية بأكملها في شعر الغزل وحده كديوان عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزليين في العصر الأموي، هذا العصر الذي شاع فيه فن الغزل شيوعا عظيما ووجد فيه أكثر من شاعر وقفوا فنهم على شعر الغزل. ثم كان العصر العباسي الذي انتشر فيه فن الغزل على كل لسان وعم العربي والأعجمي وكان أهم موضوع يشيع شعره على ألسنة أفراد الشعب عامة.

(١) ص ٩٩ الشعر والغناء في المدينة ومكة، د. شوقي ضيف، الطبعة الثالثة.

أولا : « الغـــزل التقليدى »

الغزل التقليدى أو التمهيدى : هو هذا النوع من الغزل الذى تفتتح به قصائد المدح أو الفخر أو الهجاء أو غيرها من فنون الشعر الأخرى وهو نوع من الغزل فيه من الحسى وفيه من العفيف إلا أنه لا يستقل بقصيدة بعينها وإنما يأتى مقدمة أو تمهيداً للقصيدة .

وفى هذا اللون من ألوان الغزل يقف فيه الشعراء على الديار وو يبكونها ويصفونها ويدعون إلى تحية أهلها ومخاطبتهم ويكثرون من ترداد الأسماء المعروفة للنساء وترداد الأماكن المشهودة ويشكون نقوض العهد ومخالفة الوعد ويحنون إلى أيام الشباب وأيام الذكريات الجميلة الماضية أحياناً وأحياناً أخرى يبدأون القصيدة بالحديث عن الغزل دون الوقوف على الأطلال .

إذن أعنى بالغزل التقليدى أو التمهيدى من كل غزل كان مقدمة أو تمهيداً لقصيدة تتضمن غرضاً شعرياً آخر سواء وقف ناظموه على الديار أم لا .

والتقليد ـ كما يقول الأستاذ يوسف حسين بكار ـ ظاهرة طبيعية فى كل عصر مهما كانت خصائصه وكثرت فيه مظاهر التجديد والجديد ، فلا يخلو عصر من العصور الأدبية وعند أية أمة منه وحتى العصر الجاهلى الذى يعد من أقدم العصور الأدبية بمنأى عن هذه الظاهرة التى بدأت متأخرة فيه إذا ما استثنينا . ما صرح به امرؤ القيس فى الدعوة إلى الوقوف على الديار وبكائها كما فعل ابن حذام من قبل ثم امتدت عبر العصور الأدبية حتى عصرنا الحاضر . وليس القرن الثانى بدعاً بين العصور فعلى الرغم من كثرة الجديد فى اتجاهات الشعر فيه من حيث الأشكال والمضامين فلم يكن ليخلو من هذه

الظاهرة عند شعرائه الذين وجد فيهم من ثار عليها ودعا إلى نبذها والابتعاد عنها فقد كان ذلك نتيجة حتمية لمتطلبات الحضارة وتقدمها[1] ».

فهذا اللون من الغزل لايزال حياً فى العصر العباسى بل الأولى أن يكون أكثر حياة وأعم انتشاراً لأن الخلفاء العباسيين كانوا يشجعون الشعراء لهذا التقليد فى استهلال قصائد المديح ولأن كبار رجال الأدب والنقاد كانوا يفضلون هذا التقليد ويؤثرونه على غيره .

إذن فبقاء هذا اللون من الغزل أمر طبيعى يتفق والظاهرة الطبيعية للعصر العباسى الأول ، بل لسائر العصور الأدبية الأخرى حتى العصر الحديث ، فمقدمات شوقى الغزلية ومقدمات غيره من الشعراء فى العصر الحديث ماثلة أمامنا ظاهرة رأى العين فى دواوين أصحابها من شعراء العصر الحديث ، وهذا أمر طبيعى لأن الأديب بفطرته تواق إلى تقليد من سبقه من أدباء العصور السابقة .

وعلى الرغم من الحملات التى رفع لواءها مطيع بن إياس وأبو نواس من الثورة على القديم وترك الأطلال ورفض التقليد بل التهكم والسخرية من أصحابه تهكما لاذعاً إلا أن الحملة لم تستطع أن تؤثر فى شعراء العصر بل لم تستطع إلزام هؤلاء الذين قادوا هذه الحملة من الشعراء وتنحيتهم عن هذا التقليد القديم ، فأبو نواس وبشار ومطيع بن إياس وغيرهم من قادة الحملة والثورة على القديم والمقدمة الطللية والغزلية نظموا شعراً تقليدياً فى فن الغزل وبدأوا كثيراً من قصائدهم بمقدمات طللية لا تختلف فى أى منها عن مقدمات الشعراء الجاهليين وسوف تأتى الأمثلة للتدليل على ذلك .

ويعد فن المدح أكثر الأغراض الشعرية التى استهلها شعراء العصر بالغزل التقليدى بحيث لايخلو شعر شاعر من شعراء العصر العباسى فى فن المدح من هذه

---

(١) ص ٦١ اتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى .

المقدمة الغزلية اللهم إلا نادراً وذلك لأن المدائح التي نظمها هؤلاء الشعراء كانوا يرجون ثوابها من الممدوحين وهؤلاء الممدوحون لا يقبلون من الشاعر المادح إلا أن يقدم لقصيدته بالغزل على عادة الشعراء السابقين مهما كان هذا الشاعر مجدداً ، فكل شعراء العصر العباسي الأول تقريبا نظموا شعراً في الغزل التقليدي فبشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة والحسين الضحاك والبحتري وأبو تمام وابن الرومي وعبدالله بن المعتز وغيرهم من شعراء العصر قد نظموا الغزل التقليدي في مطالع قصائدهم ، ثم يحتل الفخر المرتبة الثانية بعد المديح مباشرة من حيث التمهيد له بالمقدمة الغزلية . ثم بعض الأغراض الأخرى من هجاء ورثاء وغيرهما .

والمقدمة الغزلية من الظواهر الفنية التي صاحبت القصيدة العربية وتشكلت بأشكالها عدة ولم تتجمد في قالب واحد ، والشاعر الفنان هو الذي يستطيع أن يربط بين مقدمته وبين ما يليها من لوحات وصور فنية أخرى سواء طالت القصيدة أم قصرت وهذا هو حكم النسيب كما يقول ابن رشيق في كتابه العمدة ... من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعده من مدح أو ذم متصلا به غير منفصل عنه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في أتصال بعض أعضائه ببعض فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله ،ووجدت حذاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذا الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الإحسان »(١) .

ويلاحظ على هذه المقدمة الغزلية أن الشاعر كان يتعمد بها غالباً عن التحلل من الإلتزام الأخلاقي حتى ولو كان هذا الشاعر ماجناً فاسقاً كبشار ابن برد بخلاف شعره الغزلي الآخر وذلك لأنه ،كان ينشرها بين أيدي

---

(١) ج ٢ ص ١١٧ العمدة لابن رشيق .

الخلفاء والولاة ممن كانوا يتولون رعاية المسلمين ويحافظون على الآداب على حين كان يذيع مقطوعاته الغزلية الفاجرة فى مجالسه الخاصة البعيدة عن الأجواء الرسمية»(١).

وجاءت بعض المقدمات الغزلية فى العصر العباسى الأول معقدة ألفاظها،غريبة فى تركيبها نحس أن قائلها شاعر من شعراء العصر الجاهلى كأنه لم ير حضارة العصر العباسى ورقيه وتقدمه ، بينما نرى بعضها الآخر يؤثر شعراءها الرقة فى ألفاظها والبعد بها عن الغرابة والوعورة والصلابة والإلتواء.

فالشاعر فى المقدمة الأولى يحاول أن يتزيا ويتزين بزى وزينة البادية والصحراء فيختار ألفاظه من المعجم البدوى ، وفى المقدمة الثانية يساير روح عصره الحضارى فى الرقى والرقة والسهولة والعذوبة والأخذ بأطراف الثقافة المنتشرة فى عصره.

وقد تنوعت هذه المقدمة الغزلية بين الطول والقصر .فبعض الشعراء تمتاز مقدماتهم بطولها بينما تختلف عند الشعراء الآخرين حيث جاءت مقدماتهم قصيرة فى الغالب بينما نرى البعض الآخر لا يلتزم بمنهج واحد فمنها ماهو طويل ومنها ما هو قصير ومنها ما هو متوسط.

ومن الغزل التقليدى فى العصر العباسى الأول قول بشار بن برد فى مقدمة قصيدة يمدح فيها محمدا بن أبى العباس :

ألم يأن أن تسلى مودة مهددا فتخلف حلماً أو تصيب فترقدا (٢)
وما ذكرك اللائى مضين براجع عليك نوى الجيران حتى تبددا
أجدك لا تنسى بمقصودة اللوى عشية إذ راحت تجر المعضدا(٣)

---

(١) ص ٧٤ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د / شوقى ضيف.
(٢) يأن : يقرب تسلى : مضارع سلى - مهدد : من أسماء النساء
(٣) مقصودة : مقصودة من كل أحد.

ويقول البحترى فى مقدمة قصيدة يمدح فيها أحمد بن دينار بن عبد الله حيث يقول :

ألم تر تغليس الربيع المبكر
وما حاك من وشى الرياض المنشر(١)

ومرعان ما ولى الشتاء ولم يقف
تسلل شخص الخائف المتنكر

مررنا على «بطياس» وهى كأنها
سبائب عصب أو زرابى «عبقر»(٢)

كأن سقوط القطر فيها إذا انثنى
إليها سقوط اللؤلؤ المتحدر(٣)

وفى أرجوانى من النور أحمر
يشاب بإفرند من الروض أخضر(٤)

إذا ما الندى وافاه صبحا تمايلت
أعاليه من در نثير وجوهر

إذا قابلته الشمس رد ضياءها
عليها صقال الأقحوان المنور(٥)

---

(١) التغليس : السير فى الغلس أى ظلمة آخر الليل .

(٢) السبائب : الذوائب ، وشقة كيتان رقيقة .

(٣) القطر : المطر .

(٤) أرجوانى : مصبوغ بحمرة الأرجوان . الإفرند : جوهر السيف ووشيه . النور : الزهر الأبيض .

(٥) الأقحوان : نوع من أنواع الزهور .

إذا عطفته الريح قلت التفاتة ... لـ «علوة» فى جاديها المتعصفر (١)
بنفس ما أبدت لنا حين ودعت ... وما كتمت فى الأتحمى المسير (٢)
أتى لها فأى البـــلاد ونصنا ... سواهم خيل كالأعنة ضمر (٣)
ولما خطونا «دجلة» انصرم الهوى ... فلم يبق إلا لفتة المتذكر (٤)

نرى الشاعر يمزج الغزل التقليدى بوصف الطبيعة ، حيث يجعل الطبيعة إطاراً جميلا لحبيبته أو تمهيد جميلا يمهد به للحديث عنها . ويأتى بالعديد من الصور الجميلة الرائعة التى توحى بالجمال والبهجة ليصل مباشرة إلى الحديث عن جمال محبوبته وبهجته بحبها .

وتمتاز هذه المقدمة الغزلية بكثرة الصور الرائعة الجميلة حيث يصور ... بطياس ، وكأنها ستور من الحرير الرقيق . ويشبه حبات الندى بحبات اللؤلؤ . وغير ذلك من هذه الصور الجميلة التى تزخر بها مقدمته الغزلية . هذا وقد أكثر الشاعر فى غزله التقليدى من الحديث عن طيف الحبيب حتى اشتهر بذلك بين شعراء عصره بل يعـــد البحترى شاعر الطيف فى الأدب العربى بوجه عام .

الثورة على التقليد :

قدمنا أن العصر العباسى الأول قد عرف بين طيات فنونه الشعرية فن الغزل التقليدى الذى عرفه الشعر العربى منذ العصر الجاهلى وجاء مسطوراً فى ديوان امرىء القيس وعنترة بن شداد وذى الرمة وغيرهم من الشعراء السابقين.

---

(١) الجادى : الزعفران : المتعصفر : المصبوغ باللون الأصفر . علوة : حبيبة الشاعر وصاحبته .
(٢) الأتحمى : الشديد السواد أو الشقرة . المسير : المخطط .
(٣) النص : هو أن يستحث ما تركبه ، السواهم : الضوامر .
(٤) الديوان جـ ٢ ص ٩٨٠ ومابعدها .

وقد نظم فى هذا الفن الشعرى معظم شعراء العصر العباسى الأول بل كلهم حيث لا يخلو ديوان شاعر من شعراء ذلك العصر من هذا النوع التقليدى من الغزل اللهم إلا نادراً ، ومع ذلك فقد وجدت فى هذا العصر ثورة عنيفة على هذا النوع من الغزل خاصة المقدمة الطللية التى يقف فيها الشعراء على الديار فيبكونها ويسألونها عن الأحبة ويذرفون دموعهم عند أطلالها التى أصبحت آثاراً دارسة .

ولقد كان الكميت بن زيد الأسدى أول شاعر رفع صوته منادياً بترك الوقوف على الأطلال إلا أن دعوته لم تؤثر فى الشعراء كثيراً بل لم يكتب لها النجاح والتوفيق لأنه كان فى الميدان وحيداً ولأنه لم يرتكز فى دعوته على أصول جديدة[1] ، ثم جاء أبو نواس وحمل لواء هذه الثورة ودعا إليها بكل قوة حتى غطت شهرته على غيره من الشعراء الذين حملوا لواءها معه لأنه كان أجرأهم جميعاً وأكثرهم إلحاحاً على ترك هذه المقدمات الغزلية وجاءت أشعاره تحمل بين طياتها هذه الثورة العنيفة على المقدمة الطللية ، ومن ذلك قوله :

لا تبك ربعاً عفا بذى سلم ... وبز آثاره يد القدم[2]

وقوله :

راح الشقى على الربوع يهيم ... والراح فداحى ورحت أهيم[3]

وقوله :

أترك الأطلال لا تعبأ بها ... إنها من كل بؤس دانية
واشرب الخمر على تحريمها ... إنما دنياك دار فانية[4]

---

(١) ص ١٠٠ مقدمة القصيدة فى العصر العباسى الأول .
(٢) ديوانه ص ٥٥١ . (٣) ديوانه ص ٥٥٢ .
(٤) ديوانه ص ٦٩٢ .

وغير ذلك الكثير من الأشعار التي يدعو فيها أبو نواس إلى ترك المقدمة الغزلية والإستعاضة بوصف الخمر وغيرها من المقدمات الأخرى . بل ذهب أبو نواس بدعوته مذهبا بعيداً حيث دعا إلى نبذ كل ماهو بدوى وماءمت إلى الحياة البدوية بصلة .

وقد شارك كثير من الشعراء أبا نواس فى دعوته منهم : أشجع السلمى الذى تبنى هذه القضية ودافع عنها أكثر من مرة[1] ، وديك الجن الحمص حيث قال :

عاج الشقى مراده دمن البلى   ومراد عينى قلة وحجال[2]

ومطيع بن إياس حيث ذهب البعض إلى أنه أول من ذهب هذا المذهب[3] .

ومنهم ابن المولى حيث يقول :

فلا تبك أطلال الديار فإنها   خيال لمن لا يدفع الشوق عولق[4]

والشاعر البصرى أبو المخفف حيث يقول :

دع عنك رسم الديار ودع صفات القفار[5]

والشاعر أبو حيان الموسوس حيث يقول :

لاتبك هندا ولا المواعيسا   ولا لربع عهدت مأنوسا[6]

---

(١) ص ١٠٦ و ١٣١ الأوراق ، قسم أخبار الشعراء ، طبع مطبعة الصاوى لأبى بكر الصولى .

(٢) ديوانه ص ٩٠ جمع : عبد المعين الملوحى ومحى الدين درويش .

(٣) ص ١٥١ اتجاهات الشعر فى القرن الثانى ، مصطفى هداك .

(٤) الأغانى ج ٣ ص ٢٨٨ ، والمولق : الغول .

(٥) ص ١٢٣ الورقة لمحمد بن داود الجراح ، تحقيق / د عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج .

(٦) ص ٣٨٥ طبقات ابن المعتز .

وغير ذلك من الشعراء الذين دعوا إلى ترك هذه المقدمة الغزلية فى بداية قصائدهم ، ولكن هل هؤلاء الشعراء أنفسهم التزموا فى أشعارهم بدعوتهم هذه؟

الجواب سهل يسير لايحتاج إلى أدنى جهد فجميع هؤلاء الشعراء وعلى رأسهم أبو نواس - الذى حمل لواء هذه الثورة - لم يلتزموا بدعوتهم وجاءت هذه المقدمة الطللية فى كثير من مقدمات قصائدهم التى نظموها فى مختلف الأغراض والفنون ولقد مر بعضها فى عند الحديث فى الغزل التقليدى

ولقد وقف الدارسون والباحثون من هذه الثورة التى تزعمها أبو نواس وحارب خلالها المقدمة الغزلية مواقف متباينة حيث كان لكل واحد منهم رأيه ووجهة نظره فى الدافع الحقيقى وراء هذه الثورة .

فذهب الدكتور طه حسين : إلى أن الدافع كان شعوبيا وأن مذهب أبو نواس هذا ليس مذهباً شعرياً وفنيا فحسب وإنما هو مذهب سياسى كذلك حيث كان همه إعلاء الفرس والحط من شأن العرب فيقول الدكتور طه حسين فى حديثه عن أبى نواس : « أنه يذم القديم - لا لأنه قديم - بل إنه قديم وعربى ويمدح الحديث - لا لأنه حديث - بل لأنه حديث ولأنه فارسى فهو إذن مذهب تفضيل الفرس على العرب ، مذهب الشعوبية المشهور »(١) .

ويرى الدكتور محمد مندور أيضا إلى أن الهدف من وراء هذه الثورة هدف شعوبى ويرى أنها لم تكن ثورة على الأصول والرسوم الجاهلية فحسب بل لأنها كانت مشوبة بروح الشعوبية والغض من شأن العرب وتقاليدهم »(٢) .

كذلك ذهب الأستاذ عباس محمود العقاد نفس ما ذهب إليه طه حسين ومحمد مندور حيث يقول : « نهاه الخليفة عن الاستمرار فى هذه اللجاجة وأمره بوصف الأطلال . . ولم يأمره بالكف عنه لأنه جديد يتكرر ولكنه فهمه على معناه الذى لا يفهم سواه من هذا التهوس بتحقير الأطلال وأهلها »(٣) .

(١) ص ٩٠ حديث الأربعاء ج ٢ . (٢) ص ٧٢ النقد المنهجى عند العرب .
(٣) ص ٤٤ : أبو نواس الحسن بن هانىء ، طبع مطبعة الرسالة .

فضلا عن كثير من الباحثين الدارسين الذين ذهبوا نفس المذهب ورأوا أن الباعث على هذه الثورة كان شعوبيا أو لا يخلو من الشعوبية .

وذهب الدكتور شوقى ضيف إلى أن الباعث على ذلك إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن (١) .

ويرى الأستاذ يوسف حسين بكار : « أن لا علاقة للثورة على الأطلال بهذه الشعوبية المزعومة ، وإنما كانت ثورة لازبة اقتضتها ظروف العصر وما طرأ عليه من تقدم حضارى شمل الناس فى أكثر مناحى حياتهم »(٢).

ويرى الأستاذ عبد الحليم عباس أن الدافع لهذه الثورة كان دافعاً فنياً خالصاً لا يمت إلى الشعوبية .

ونحن نرى أن أبا نواس إنما كان يهدف من وراء ذلك الصدق الفنى حيث يعبر الشاعر عما يحس به وعما يعيش فيه ويبتعد عن التصنع والتكلف الذى يفسد العمل الأدبى وينقصه وأن ثورته هذه كانت ثورة حضارية خالصة بعيدة عن الشعوبية ودعوة لمعاصريه من الشعراء أن يكونوا صادقين مع أنفسهم ومع الناس فى فهم صدقهم مع أنفسهم فى حياتهم ، ويؤيد ذلك قول أبى نواس :

صفة الطلول بلاغة القدم	فاجعل صفاتك لابنة الكرم
فعلام تذهل عن مشمشعة	وتهيم فى طلل وفى رسم
تصف الطلول على السماع بها	أذوو العيان كانت فى العلم
وإذا وصفت الشىء متبعاً	لم تخل من زلل ومن وهم(٣)

فالهدف إذن من هذه الثورة كان هدفا فنياً لا شعوبيا وإن كنا نشم رائحة الشعوبية فى دعوته .

---

(١) ص ١٠٣ إتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى .

(٢) ينظر ص ١٠٨ أبو نواس .

(٣) ديوان أبى نواس ص ٥٣٩ – ٥٤٠ .

وعلى الرغم من هذه الثورة التى حمل لواءها أبو نواس على المقدمة الطللية وبالرغم من حملاته المتكررة وحروبه المتعددة ضدها إلا أن هذه المقدمات الغزلية قد استمرت فى العصر العباسى حتى عند هؤلاء الشعراء الذين دعوا لتركها وعند أبى نواس بوجه خاص ، ومن المرجح أن بقاء هذا التقليد كان له أسبابه التى ساعدت على بقائه واستمراريته أهمها: تشجيع الخلفاء العباسيين لهذا التقليد العربى الموروث ومنحهم الهبات والأموال من أجل ذلك كما قدمنا فى عوامل وبواعث الغزل ، فضلا عن تفضيل العلماء والنقاد والأدباء لهذا البدء التقليدى وتشجيعهم له واعترافهم به دون غيره بل وإعجابهم بهذه المقدمة الغزلية الموروثة .

« الغـــزل العفيف »

قدمت سابقاً أن العصر العباسي الأول قد عرف فن الغزل بأنواعه الثلاثة التي كانت معروفة من قبل في العصر الأموي والإسلامي والجاهلي وهي :

الغزل التقليدي والغزل الحسي والغزل العفيف فضلاً عن استحداث فن آخر من ألوان الغزل وهو الغزل بالمذكر .

وقد كان الغزل الحسي أكثر ألوان الغزل شيوعاً وانتشاراً في شعر الغزل في العصر العباسي الأول نظراً لطغيان مظاهر اللهو والمجون حيث راح الشعراء يتغزلون غزلاً مكشوفاً إباحياً لم يشهد الأدب العربي مثيلاً له من قبل ومع ذلك فقد وجد أيضاً الغزل العفيف بجوار الألوان الأخرى وإن كان أقل شيوعاً من الغزل الحسي ، حيث وجد الشعراء المحبون الصادقون بعواطفهم وأحاسيسهم تبرحهم الصبابة ويعذبهم الألم فراحوا يشكون حرقة هذا الحب وآلام الهجران والصد من قبل المحبوب أمثال : الشاعر العفيف العباس بن الأحنف وعكاشة العمى والمؤمل بن جميل وابن رهيمة وعلى بن أديم وغيرهم من شعراء الغزل العفيف في العصر العباسي الأول ، وليس بغريب أن يجد الباحث شعراء من هذا النوع في هذا العصر لأن المجتمعات الإنسانية مهما بلغ بها الإنحطاط مداه في أي عصر من العصور لا تعدم أن تجد فيها أناساً يقفون في الصفوف المقابلة مهما كان عددهم قليلاً »(١).

حتى هؤلاء الشعراء الذين بلغوا ما بلغوا في فسقهم ولهوهم ومجونهم

---

(١) ص ٢٦٦ إتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ، يوسف حسين بكار .

أمثال بشار وأبى نواس ومطيع بن إياس والحسين الضحاك وغيرهم من شعراء المجون والغزل الحسى الفاحش نظموا أيضا غزلا عفيفا بجوار الغزل الحسى وشعر اللهو والمجون وإن كان قليلا

إذن وجد الغزل العفيف فى العصر العباسى الأول بجوار الألوان الأخرى من الغزل بل وتخصص فيه بعض الشعراء أمثال العباس بن الأحنف الذى نظم ديوانا ضخما فى فن الغزل العفيف خاصة ، وراح هؤلاء الشعراء يصورون العفة فى العاطفة وأخذوا يعبرون عن أشواقهم وعواطفهم وعن العذاب والألم وعن الصد والهجران وجاء غزلهم ثائرا شاكيا فى مواضع هادئا فى مواضع أخرى ، ولكن مع ذلك وجد بعض الباحثين الذين راحوا ينكرون الغزل العفيف فى العصر العباسى أمثال : الدكتور طه حسين والأستاذ حسان أبو رحاب والأستاذ الشايب وغيرهم .

رأى الدكتور طه حسين :

يقول : « أما عصر بنى العباس فلم توجد فيه مدرسة غزلية إن صح التعبير الحديث ، ولسنا نجهل أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا وأتقنوا الغزل والنسيب ولكننا نزعم أنهم لم ينقطعوا للغزل ولم يسلكوا فيه سبيل أصحابنا هؤلاء الذين ندرسهم فى هذه الأحاديث وإنما كانوا كالجاهليين يتخذون الغزل وسيلة شعرية أو يتعاطونه كما يتعاطون غيره من الفنون ، وإذا كان الشعراء العباسيون قدموا فى الأدب العربى شيئا فهم لم يستحدثوا الغزل . وأكاد أقول : إنهم انصرفوا عنه إلى شىء آخر أو أكاد أقول : إنهم حولوا إلى شىء آخر هو العبث والمجون . أعلم أنك ستذكر العباس بن الأحنف وقد ذكرته أنا أيضا ولكنه استثناء يثبت القاعدة . ويكفى أن تقرأ الشعر العباسى لتعلم أنه كان غريبا فى عصره وأنه سقط بين كرسيين ، كما يقول الفرنسيون فلم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بنى أمية ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء

بنى العباس وإنما جاء فاتراً قلما يترك فى النفس أثراً قوياً لأن الفن الذى أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره وانتهت الأسباب التى أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه . وإذا كان العصر العباسى قد خلا من مدرسة غزلية خالصة فما أحسبك تريد أن تعرض للعصور الأخرى التى جاءت بعده فهى لاتستحق عنايتنا الآن»(١).

هذا رأى الدكتورطه حسين وحديثه عن الغزل ـ خاصة الغزل العفيف ـ فى العصر العباسى ، حيث راح ينكر وجود الغزل العذرى العفيف خاصة والغزل الصادق بوجه عام فى العصر العباسى حيث استدل على ذلك أن العصر العباسى كان عصر اللهو والمجون وعنى بالمجون وترك الغزل العفيف وأن العباس بن الأحنف ضعيف العاطفة لم يبلغ فى غزله العفيف مبلغ غيره من شعراء العصر الأموى وأنه استثناء لايثبت وجود هذا اللون من الغزل فى عصره ويرى أن الأسباب الموجدة لهذا الغزل لم تعد موجودة فى هذا العصر ، وقد نسى الدكتور طه حسين أو تناسى أن العفة فى القول غير مرهونة بعصر من العصور وهى ليست وقفاً على مجتمع دون غيره من المجتمعات لأن كل مجتمع يوجد فيه الطهر والعفة والخير والشر ويوجد الأطهار من الناس بجوار المجان منهم والأخيار منهم بجوار الأشرار ، فالعصر الأموى الذى جعله الدكتور طه حسين عصر الغزل العذرى وأن الغزل العذرى قد انتهى عند انتهائه وجد فيه أيضا بجوار الغزل العفيف الغزل الحسى والتصريح بالسوءات فى ثناياه وديوان عمر بن أبى ربيعة خير شاهد على ذلك .

والعصر العباسى لم يوجد فيه العباس بن الأحنف الذى نظم غزلا عفيفا فقط بل وجد معه فى العصر شعراء آخرون امتازوا بالعفة والطهارة والصدق فى غزلهم أمثال : على بن أديم وعكاشة العمى والمؤمل بن جميل وابن رهيمة

---

(١) ص ٢٩٤ جـ ٢ حديث الأربعاء ، الطبعة الثالثة عشرة .

وعبد الله بن المعتز ودعبل الخزاعى وعلى بن الجهم وغيرهم من الشعراء الذين التزموا العفة والطهارة فى غزلهم وسوف تأتى الأمثلة والنماذج الشعرية التى تثبت ذلك عند عرضنا للنماذج الشعرية للغزل العفيف فيما بعد .

رأى الأستاذ حسان أبو رحاب :

يرى الأستاذ حسان أبو رحاب أن الغزل العفيف قد وقف عند العصر الأموى وأنه غاب واحتجب فى العصر العباسى لأن أسبابه لم تعد قائمة فيه ولأنه وجد فى هذا العصر من العوامل والأسباب ماينافيه »[1] .

فنراه يتفق فى الرأى مع الدكتور طه حسين حتى نفس الأسباب والأدلة التى استدل بها هى نفس الأدلة التى استدل بها الدكتور طه حسين ويرد عليه بمثل مارد به على سابقه .

رأى الأستاذ أحمد الشايب :

يقول الأستاذ أحمد الشايب فى كتابه أبحاث ومقالات : « هذه الحياة العباسية التى ازدوجت من عناصر عربية وأخرى أعجمية قامت على الفكر اليونانية والفارسية واشتركت فيها المرأة الفارسية قينة وخادماً وزوجاً وشاعرة وفتاة ، تقول هذه الحياة جعلت الرجال يرون فى المرأة موطن النعيم والنعيم الحسى الواقعى ولم يفرغوا للهوى العذرى وبكائه وحزنه وقصصه . . . إن الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى أصابت الأخلاق بشىء من الإنحــلال والوهن فعكف الشعراء على لذاتهم وكونوا نوادى يجتمعون فيها للهو والعبث ينضم فيها القيان وغيرهن ثم يأخذون آخر الأمر فى وصف مايدور فى هذه

---

(١) ص ٢٠٥ الغزل عند العرب .

المجتمعات فيكون من ذلك وصف وقصص ومجون وكلهم لم يقتصر على امرأة واحدة وكلهم رأى المرأة وسيلة المتاع الحسى »(١) .

فالأستاذ أحمد الشايب يرى أن الغزل العفيف بل حياة للطهر والعفة قد انعدمت تماما فى العصر العباسى ووجد اللهو والمجون فقط والحياة العباسية ما هى إلا لهو ومجون ومتاع باللذات المختلفة بسبب ما طرأ على المجتمع العباسى من حياة الانفتاح على الحضارات الأخرى والمجتمعات الأخرى كالفرس واليونان وغيرهم .

ونحن مع الأستاذ أحمد الشايب بأن العصر العباسى عصر شاع فيه اللهو والمجون وانتشرت الأديرة وأماكن اللهو المختلفة فى ربوع الدولة العباسية مما كان سببا فى وجود الأدب الصريح المكشوف ونحن لا ننكر ذلك ولكننا نرى أنه بجوار اللهو والمجون وجدت حياة الطهر والعفة فليس هناك من المجتمعات ما كله طهر وعفاف وليس هناك أيضا من المجتمعات ما كله فسق ولهو ومجون فبجوار الأديرة والحانات وأماكن اللهو المتعددة فى العصر العباسى وجـــدت المساجد ودور العبادة وكثر الفقهاء والعباد والزهاد ويكفى العصر العباسى الأول فخراً أن وجد فيه كبار الفقهاء المسلمين أمثال : الإمام أبى حنيفة النعمان والإمام الشافعى رضى الله عنهما وهما من هما دينا وعلما وفقهاً ، بل ظهر فيه كبار الزهاد المتصوفة ولا يخفى على أحـــد رابعة العدوية المتصوفة العابدة الزاهدة شهيدة العشق الإلهى وجدت فى العصر العباسى .

خلاصة القول : إن وجود تيار المجون لا ينفى بالتالى تيار الطهر والعفة وأنه بجوار المجون وجد الطهر والعفاف ، فالشعر العفيف وجد بجوار الغزل الماجن وإن كان أقل منه شيوعا وانتشارا ، ووجد شعراء العفة والطهر والعفاف

---

(١) ص ٣٠٣ أبحاث ومقالات ، للاستاذ أحمد الشايب .

الذين نظموا الشعر الصادق العفيف ولم يكن كل شعراء العصر من شعراء المرأة وسبيله المتاع الحسى ، وقد تقدم ذكر بعض هؤلاء الشعراء .

رأى الدكتور شوقى ضيف :

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن تيار الغزل العفيف كان يجرى بجانب التيار الحسى ولكن مجراه كان ضيقا بالقياس إلى عصر بنى أمية ويرى أنه من الطبيعى أن يضعف هذا التيار العفيف فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر وأن الغزل العفيف بقيت له بقية عند العباس ابن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بعن وضرب بينهم وبينهن حجاب ضيق ، فعاشوا يتعذبون بالحب وعاش الحب فى قلوبهم قوياً حاداً[1] ، ويرى أن الغزل العفيف ظل حيا — فى العصر العباسى — لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدران الحس وأعراضه وعاشوا فى حبهم معيشة طاهرة نقيه أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد بن داود الأصبهانى صاحب كتاب « الزهرة » فى الحب وأشعاره[2] .

ويرى الأستاذ يوسف حسين بكار : أن الغزل العفيف شجرة نبتت بذرتها فى الجاهلية ثم ترعرعت وازدهرت فى العصر الأموى واستمرت فى العصر العباسى[3] ، وهو ما نستريح له ونقره ونراه رأياً صائباً وهو من الحقيقة فى الصميم .

والغزل العفيف : هو هذا النوع من الغزل الذى لا يهتم بتصوير الغريزة أو رسم الإطار الشكلى لجسد المرأة والتركيز على مفاتن جسدها وملامح الجمال

---

(١) ص ٣٧١ العصر العباسى الأول ، الطبعة الثانية .
(٢) ص ٧٢٣ العصر العباسى الثانى ، الطبعة الخامسة .
(٣) ص ٢٦٦ إتجاهات الغزل فى القرن الثانى الهجرى .

فيه وإنما يهتم بتصوير العاطفة العفيفة ويعبر عن الشوق والحنين وعن الصد والهجران وذكر الفراق ومرارة الحرمان ويصور النفس المشتاقة دائما الى لاتعرف الهدوء أو الخول الوجداني ، فهو ضرب من المثل العليا لانجده إلا فى الحب الصادق البعيد عن كل لذة وهوى خبيث .

وقد وجد هذا اللون من الغزل فى العصر العباسى الأول - كما قررنا وأثبتنا ذلك - عند هؤلاء الشعراء العباسيين الذين تحصنوا بالعفة بعد ما أغراهم الجمال ودعاهم إلى العشق والحب الصادق فأخذوا يعبرون عن عواطفهم وآلامهم وآمالهم وأمانيهم التى يتمنونها من هذا الحب الصادق وأخذ كل واحد منهم يفصح من خلال شعره عن مكنون سره تجاه المرأة التى أحبها وعلق بها قلبه متأثراً بجمالها الذى رآه وأحسه مكتفيا بالتصوير المعنوى دون أن يتناول شيئاً من جسدها .

ومن شعر الغزل العفيف فى العصر العباسى الأول قول عكاشة العمى فى امرأة يهواها يقال لها « نعيم » :

علام حبل الوفاء منصرم	وفيم عنى الصدود والصمم
يارب خذلى من الوشاة إذا	قاموا وقمنا لديك نختصم
من حل حبل الوفاء سيدتى	منك ومن سامنى له العدم
قد عيل صبرى وأنت لاهية	عنى وقلبى عليك يضطرم
دبوا إليها يوسوسون لها	كى يستزلوا حبيبتى زعموا
هيهات من ذاك ضل سعيهم	ما قلبها المستعار يقتسم
ياحاسدينا موتوا بغيظكم	حبلى متين بقولها نعم
بالله لا تشمتى العداة بنا	كونى كقلبى فلست أتهم[1]

(١) ص ٤١١ القسم الأول ، الجزء الأول ، تجريد الأغانى ، تحقيق د/ طه حسين وإبراهيم الأبيارى .

يقول العباس بن الأحنف(١) :

ألا فانظرى بالله يا سكنى الوعدا ... ولا تتركى أن تجعلى ديننا نقدا
ألم يأن أن تشفى الذى قد تركته ... يقاس طوال الليل من حبك الجهدا
كأنك لا تدرين ما بى من الهوى ... وقد صرت عظماً يابسا مغلقا جلدا
فإن كنت لاتدرين ماالعشق فانظرى ... إلى فإن العشق صيرنى عبدا
فواكبدى من باطن الشوق والهوى ... لقد خفت أن أبقى لقى هالكا جدا(٢)
إذا قلت إن الحب قد بان وانجلى ... عن القلب حن القلب وازداد واشتدا
فقلبى إليكم لا يزال يجرنى ... ويفتح لى بابا من الحب منسدا
ولو كان قلبى طائعا لى قلاكم ... ولكن عصانى فهو أشقى بكم جدا
أبى القلب ويح القلب إلا صبابة ... إليها وإلا أن يديم لها الودا
ألا فرجى عنى فديت وأنعمى ... على تصبى الأجر فى ذاك والحمدا
قتلت غلاما عاشقا لك هائما ... ومثلك حسنا يقتل الشيب والمردا
ولو خيرونيها وخلدا منعما ... تخيرها قلبى ولم يختر الخلدا
ووالله لو عددت ما بى من الهوى ... لحرت ولكن لا أطيق له عدا

فى هذه الأبيات نرى الشاعر العاشق المستعبد فى حبه الأسير الذليل لعشقه وهواه . ونرى المحب الصادق الذى لا ينثنى عن حبه ولا يلين ، حيث أخذ الشاعر يصور سهاده وما أحدثه بعد الحبيب من نيران الحب وأصبح الشاعر مستهاما بمحبوبته يحبها كل الحب حتى أصبح عظما يابسا مغلقا جلدا مما هو عليه من صبابة وشكوى وآلام وصد وهجران من حبيبته ويطلب منها

---

(١) ص ١١١ ديوان العباس بن الأحنف ، دار صادر بيروت .

(٢) اللقى : الشىء الملقى المطروح .

الوصال والمودة لأن القلب لا يريد سواها وأنها بوصلها إياه تفرج عنه الهموم والأحزان وتنال الأجر والحمد العظيمين ، ويرى الشاعر العاشق أن محبوبته قد قتلته بعشقها وهواها وجمالها الذى يقتل الشيب والشباب ، ثم يذكر الشاعر : أنه لو خير بين محبوبته وبين جنة الخلد لاختار محبوبته وفضلها على جنة الخلد والنعيم لأنه عاشق هائم قد غرق فى حبها الذى لا يستطيع أن يعرف أوله من آخره .

فالشاعر فى هذه الأبيات يصور لواعج حبه وأشواقه ويصف ما هو فيه من آلام وأحزان بسبب هجر المحبوبة وصدها ولم يتناول شيئا من مفاتن جسدها ووصف أعضائها وإنما اقتصر على تصوير آلام البعد ومرارة الحرمان.

وقد استخدم الشاعر لأبياته أسلوبا سهلا لينا وألفاظا عذبة سلسة وجاءت معانيه واضحة جلية بعيدة عن الغموض والخفاء ، كما أنه لم يأت بلفظ مبتذل أو بمعنى فاحش وهو ما يتفق وشعر الغزل العفيف فى أسلوبه وألفاظه ومعانيه .

ويقول أيضا متغزلا غزلا عفيفا[1] :

يا من دعانى ثم أدبر ظالما	إرجع وأنت مواصل محمود
إنى لأكثر ذكركم فكأنما	يجرى لسانى ذكركم معقود
أبكى لسخطك حين أذكر مامضى	ياليت ما قد فات لى مردود
لا تقتليني بالجفاء تماديا	واعنى بأمرى إننى مجهود
ما زال حبك فى فؤادى ساكنا	وله بزيد تنفسى ترديد
فيلين طورا للرجاء وتارة	يشتد بين جوانحى ويزيد
حتى برى جسمى هواك فما ترى	إلا عظام يبس وجلود
لا الحب يصرفه فؤادى ساعة	عنه ولا هو ما بقيت يبيد
وكأن حب الناس عندى ساكن	وكأنه بجوانحى مشدود

(١) ديوانه ص ١٢٩ — ١٣٠ .

العشق الإلهى :

ومما يلحق بالغزل العفيف الحب الإلهى أو الغزل الصوفى وهو غزل ليس فى امرأة أو غلام وإنما هو تغزل فى ذات الله عز وجل يعبر فيه الشاعر عن عظم حبه لله الخالق وتفانيه فى ذات الله تعالى .

ومن المؤسف حقا أن نرى أخبار الشعراء الماجنين وأشعارهم تملأ أعظم الكتب التاريخية والأدبية وأخبار هؤلاء الشعراء المتصوفة لم يتعرضوا لها ولو من طرف .

وفمثلا نجد كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى يكتظ بأخبار الشعراء الماجنين والعابثين ويفيض بأشعارهم اللاهية العابثة سواء كانت خمرا أو غزلا فاحشا مثل بشار وأبى نواس والخليع وغيرهم من شعراء الفسق والمجون بينما لم يتعرض من شعراء الصوفية فى العصر العباسى مثل الجنيد والشبلى وهما من كبار شعراء العصر العباسى فى نفس الوقت الذى يتعرض فيه لأخبار الشعراء النكرات الذين لم يأخذوا مكانا فى عالم الشعر ودنيا القريض .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد بعض الباحثين والمؤرخين كابن خلكان وابن الأثير والخطيب البغدادى يوردون بعض الأخبار عن هؤلاء الشعراء من الصوفية وبعضا من أشعارهم التى لا تكفى أن تكون شاهدا على شاعرية هؤلاء الشعراء وعلى مكانة الشعر الصوفى فى العصر العباسى نظرا لقلة الأشعار التى رووها والتى لاتصلح أن تكون معيارا حقيقيا للحكم على مكانة الشاعر الصوفى الأدبية .

وقد قلنا سابقا إن تيار الزهد كان يجرى بجوار التيار الماجن الذى قاده بشار وأبو نواس ومطيع بن إياس ووالبة وغيرهم من شعراء اللهو والمجون فى العصر العباسى الأول ، وقد استمر تيار الزهد فى العصر العباسى يستقطب كثيرا من الشعراء حتى من أولئك الذين بدأوا حياتهم باللهو والتهتك والمجون أمثال أبى العتاهية الذى قضى نحو خمسين عاما من حياته لاهيا ماجنا عابثا ثم انقلب إلى شاعر زاهدا وله ديوان ضخم كله فى شعر الزهد والحكمة لاغير .

وقد امتد تيار الزهد فى العصر العباسى الأول وتطور حتى انتهى إلى نظام خاص فى السلوك والتعبد وهو ما عرف بالتصوف .

وكما ولد الزهد أدبا فقد ولد التصوف كذلك أدبا بل عالما من الأدب شعرا ونثرا قائما بذاته(١) .

وقد كان معظم الشعراء الصوفيين يعشقون النساء فى أول حياتهم ويبادلونهم الحب ويقاسمونهم العشق ثم ارتقوا من العشق الإنسانى إلى العشق الإلهى لذا جاءت أكثر رموزهم تتجه نحو المرأة ، فتراهم يعبرون عن الذات الإلهية بلفظ : ليلى ونعم وغيرهما من الألفاظ المعروفة فى شعر الغزل الإنسانى ، والصلة بين الغزل الإنسانى والغزل الإلهى هى صلة الترقى إلى الوضع الأشرف ولكن العاطفة بقيت كما هى وهى عاطفة الحب .

وكانت الشاعرة المتصوفة «رابعة العدوية» أول من فتحت أبواب الشعر الصوفى وأول طارق لأبوابه وأول من نطقت به من الشعراء ثم تأثر بها الشعراء بعد ذلك وسلكوا مسلكها فى عالم الشعر الصوفى ، فكانت القائدة والرائدة للشعر الصوفى وللشعراء الصوفيين على حد سواء ، ومن أشعارها الصوفية الشائعة(٢) :

---

(١) ٣١١ فى الشعر العباسى ، الرؤية والفن د. عزالدين إسماعيل طبع عام ١٩٨٠م.

(٢) ص ٨٢ عاشقة السماء . تأليف السيدة نادرة توفيق ، طبعة بيروت .

أحبك حبين : حب الهوى — وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو الهوى — فذكر شغلت به عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له — فكشفك لى الحب حتى أراكا
فما الحمد فى ذا ولا ذاك لى — ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ومن أشعارها تتصوف[١] :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى — وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى — وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

حيث ترى أنها تحدث خالقها بخواطرها وعواطفها مهما كان عدد الجالسين من البشر حولها ، فالجالسون يؤنسون بجسمها أما شغلها وفكرها فهو تفكيرها فى ربها عمن سواه ، فهو الذى يحتل قلبها دون غيره .

وتقول الشاعرة الزاهدة تتعشق فى ربها[٢] :

راحتى يا إخوتى فى خلوتى — وحبيبى دائما فى حضرتى
لم أجد لى عن هواه عوضا — وهواه فى البرايا محنتى
حيثما كنت أشاهد حسنه — فهو محرابى ، إليه قبلتى
ياطبيب القلب ، ياكل المنى — جد بوصل منك يشف مهجتى
ياسرورى ياحياتى دائما — نشأتى فيك وأيضا نشوتى
قد هجرت الخلق جمعا ارتجى — منك وصلا فهو أقصى منيتى

نجد للشاعرة المتعشقة فى ربها تجد راحتها فى بعدها عن الخلائق وقربها من الخالق ، هذا الخالق الذى لايفارقها ولا تفارقه فهى دائماً معه ولم تجد عن هواه وحبه عوضا يعوضها عنه ، وأنها حيثما كانت تشاهد

(١) ص ٧٨ شاعرات العرب ، جمع : بشير عوت .
(٢) ص ٨٥ عاشقة السماء .

جماله وحسنه وهو محرابها الذى تتوجه إليه ، وأنها تراه الطبيب المداوى لقلبها وأنه كل مناها وتتمنى أن تراه دائما لأنه الشفاء والدواء وأنه سرورها وحياتها ، وقد هجرت الخلائق جميعاً من أجله وأجل وصاله لأن وصاله سبحانه وتعالى هو أعظم ما ترجوه وتتمناه .

وقد توفت الشاعرة الزاهدة المتصوفة رابعة العدوية عام ١٣٥ هـ كما رواه ابن خلكان[١] . أى أنها أدركت ثلاث سنوات فقط من العصر العباسى .

ومن شعراء التصوف فى العصر العباسى الأول الشاعر : «سمنون» المجنون ويظهر من اسمه أنه عرف بالمجنون لجنونه فى عشق الله وتعلقه به أعظم تعلق ، ومن شعره فى الغزل الصوفى[٢] :

وكان فؤادى خالياً قبل حبكم	وكان بذكر الخلق يلهو ويمزح
فلما دعا قلبى هـواك أجابه	فلست أراه عن فنائك يبرح
رميت ببين منك إن كنت كاذباً	وإن كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
فإن شئت واصلنى وإن شئت لا تصل	فلست أرى قلبى لغيرك يصلح

حيث يرى «سمنون» أن قلبه كان خاليا من الحب قبل حب الله عز وجل ولما دعاه هواه أجاب قلبه لهذا الدعاء ولم يعد هناك فى قلبه ما يشغله سوى حب الله سبحانه وتعالى بل هو عاكف على حبه ، وأنه إن لم يكن صادقا فى حبه فليس هناك عقاب أكبر من فراق الله عز وجل وبعده عنه ، ويرى أن قلبه لا يصلح لحب آخر غير حب الله عز وجل .

ويعد «الجنيد» الشاعر الصوفى المشهور من شعراء التصوف فى العصر العباسى الأول ، ومن شعره فى التصوف[٣] :

---

(١) ص ٤٨ ج ٢ وفيات الأعيان . طبعة : محيى الدين عبد الحميد .

(٢) ص ١٩٩ مصارع العشاق .

(٣) ص ١٨ مع الصوفيين . تأليف / طه عبد الباقى سرور .

الوجد يطرب من فى الوجد راحته ... والوجد عند حضور الحق مفقود
قد كان يطربنى وجدى فأشغلنى ... عن رؤية الوجود من الوجود موجود

والبيتين يحدوهما الغموض والخفاء واستخدم الشاعر رموزا خفية معروفة عند المتصوفة .

« وأبو بكر الشبلى » الشاعر الصوفى المشهور تلميذ « الجنيد » ورفيقه نظم كثيرا من الشعر الصوفى فى حب ربه والتغنى بعشقه وهواه ومن هذه الأشعار قوله(١) :

ترى المحبين صرعى فى ديارهمو ... كفتية الكهف لا يدرون مالبسوا
والله لو حلف العشاق أنهمو ... قتلى من الشوق يوم البين ماحنثوا

فالشاعر يقصد : المحبين للذات الإلهية ، والعشاق لحب الله عز وجل والشوق إلى ذات الله سبحانه وتعالى .

ومن شعره كذلك قوله(٢) :

على بعدك لا يصبر ... من عادته القرب
ولا يقوى على هجرك ... من تيمه الحب
فإن لم تره العين ... فقد يبصرك القلب

فالشاعر يخاطب الذات العلية ويرى أنه لا يقدر أن يصبر على بعد الله عز وجل ولا يقوى قلبه على هجره . لأنه متيم عاشق بحبه وأنه إذا كانت لا تراه العيون فإنه يراه ويبصره بقلبه .

ومن شعراء العصر العباسى الأول فى التصوف الشاعر الصوفى الكبير : « الحسين بن منصور الحلاج » الذى كان يرى : « أن الزاهد إذا تحمل المشاق

---

(١) ديوان أبى بكر الشبلى . تحقيق / مصطفى كامل الشيبى طبع العراق .
(٢) ص ٤٠ ج ٢ وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

والآلام وظل يصفى نفسه بالمجاهدات والرياضات المضنية انتهى إلى الدرجة الرفيعة التي يبتغيها إذ يتمثل فى نفسه حقيقة الصورة الإلهية التى سواها الله فيه »[١] .

ومن أشعاره يخاطب ربه :

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شىء مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال

فكأن الشاعر يرى الله فى ذاته أو كأنما حل فيه اللاهوت كما آمن المسيحيون فى المسيح .

ومن شعره أيضا قوله :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

فيرى الشاعر أن الروح الإلهية أو اللاهوت يحل فيه فكأن الله هو وكأنه الله فهما روحان فى جسم واحد .

فضلا عن كثير من شعراء المتصوفة الذين ظهروا فى هذا العصر أمثال : ذو النون المصرى[٢] وأبو اليزيد البسطامى[٣] وغيرهما .

---

(١) ص ٤٧٨ العصر العباسى الثانى ، د / شوقى ضيف .
(٢) الذى توفى عام ٢٤٦ هـ .   (٣) الذى توفى عام ٢٦١ هـ .

(الغزل الحسى)

الغزل الحسى أو الغزل الصريح هو هذا النوع من الغزل الذى يتعرض للمرأة بالوصف والتصوير وإلى إظهار مفاتن الجمال منها والمبالغة فى الوصف ومجاوزته إلى ذكر أشياء أخرى فى المرأة تثير الشهوة واللذة ولا يحتشم فيه الشاعر بل يعبر فيه أحياناً عن جوعه الجسدى وغرائزه الحيوانية .

ويعد هذا النوع من الغزل أكثر الأنواع شيوعاً وانتشاراً فى العصر العباسى الأول سواء كان غزلا حسياً فاحشاً أم غير فاحش . وكان هذا اللون من الغزل أكثر الإتجاهات فى هذا العصر شيوعاً بسبب ماطرأ على الحياة العباسية من مظاهر الترف واللهو والمجون وانتشار الأديرة والحانات وأصبحت المرأة سلعة رخيصة تباع وتشترى بأى ثمن ، بل ينالها من يريدها دون أى ثمن أو حق ، وكثرت الجوارى كثرة مفرطة وهبط شأن المرأة وأصبح الحديث عنها ضرباً من اللهو والمتعة والمجون ، وأصبح الناس فى المجتمع العباسى والشعراء منهم خاصة لاهم لهم فى الحياة إلا أن ينعموا ويلهو ويتمتعوا بوسائل الترف والنعيم ما خبث منه وما طاب وما قبح منه وما جمل وخلع الشعراء عذارهم وتجردوا من الحياء وعبروا تعبيراً ماجناً فاضحاً فى أشعارهم .

ولم تكن المرأة العربية الحرة هى موضوع هذا اللون من الغزل فى العصر العباسى الأول اللهم إلا نادراً لكثرة الجوارى والإماء والمغنيات والغلاميات التى كثرت كثرة مفرطة فى هذا العصر .

وشاع الغزل الإباحى المكشوف الذى لا يعرف للمرأة كرامتها ولا يصون لها عفتها بل أصبح ضرباً من ضروب الخلاعة والفسق والمجون .

وقد اهتم الشعراء بتصوير أعضاء المرأة وإظهار مفاتنها ووصفها وصفا دقيقاً يظهر خفايا العناصر الجمالية منها ورسموا لها قالباً حياً متحركاً جميلا ولم يتركوا عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، فوصفوا جمال وجهها وما يحتويه من عناصر الجمال في مكوناته وعناصره فصوروا جمال وسحر عيونها وحمرة خدودها وشعرها الطويل الفاحم المسترسل كما صوروا عنقها وصدرها وفمها وحلاوة ريقها وأسنانها ولونها وقوامها وقبلتها كما صوروا ساعديها وخديها وأصابعها وخصرها وبطنها وأقدامها وأنفها وكل عضو من أعضاء جسمها وافتنوا في كل ذلك افتناناً . فضلا عن أنهم تعرضوا لزينتها وزيها بالوصف والتصوير كذلك .

ولقد كثر شعراء الغزل الحسي في العصر العباسي كثرة مفرطة أمثال : بشار بن برد وأبي نواس ومطيع بن إياس ووالبة ومسلم بن الوليد والحسين ابن الضحاك وحماد عجرد وسلم الخاسر وأبو تمام والبحتري وابن الرومي وعبد الله بن المعتز وغيرهم من شعراء العصر ، واستطاع هؤلاء الشعراء أن يكونوا كما ضخماً من شعر الغزل الحسي في العصر العباسي الأول نستطيع من خلاله أن نعرف ما كان عليه العصر من لهو ومجون وفسق وتهتك وخلاعة وتهور .

ولم يترك هؤلاء الشعراء الحسيين امرأة جارية أو ساقية في الحانات أو مغنية إلا وتغزلوا فيها غزلا حسياً صريحاً وخلعوا عذارهم دون حياء أو خجل أو مراعاة لحرمة الدين وقيمه ، وفضلا عن تغزلهم ببعض النساء الحرائر أيضاً وإن لم يفحشوا في تغزلهم بهن وإنما ظهر الفحش والتهتك بغزلهم في غير الحرائر من نساء العصر .

والغزل الحسي في العصر العباسي الأول منه ما هو حسي فاحش تعرض فيه الشعراء لذكر المساوىء والإسفاف وتصوير متعتهم ولذتهم ، ومنه ما هو

حسى غير فاحش حيث وصفوا فيه أعضاء المرأة وصوروها دون ذكر شيء من الفحش والمجون أو التعرض لذكر السوءات .

ويعد بشار بن برد أول شاعر يسلك إلى الغزل طريقا صريحة ماجنة ملتوية جريئة فى اهدافها وصورها خارجة عن الإباء والعفة وجاء غزله إباحياً ماجناً مكشوفاً فى معظمه وبلغ مع عماه فى وصف المرأة ما لا يبلغه المبصرون حيث لم يغادر صغيرة ولا كبيرة فى وصف المرأة إلا أحصاها ووصفها وصفاً دقيقا يعجز المبصرون عن وصفه وتصويره ، ومن شعر بشار الغزلى الحسى قوله (١) .

ألا يا « طيب » قد طبت	وما طيبك الطيب
ولكن نفسى منك	إذا صمك تقريب
وثغر بارد عذب	جرى فيه الأعاجيب
ووجه يشبه البدر	عليه التاج معصوب (٢)
وعين تسحر العين	وما فى سحرها حوب
ووحف زات منكبك	وزانته التقاصيب (٣)
وجيد يشبه الدر	كجيد الريم سلهوب (٤)
ونحر بين حقين	يشف العين مشبوب (٥)
عليه الجوهر الأخضـ	ـر والياقوت منصوب

فبشار يتغزل فى محبوبته « طيبة » غزلا حسياً صريحاً حيث يتعرض

---

(١) ديوان بشار ص ٢٣١ - ٢٣٢ ج ١ .

(٢) التاج : إكليل من ذهب تحمله المرأة على رأسها .

(٣) الوحف : الشعر الكثيف الأسود . وكان النساء يسدلن شعورهن على ظهورهن . التقاصيب : جمع تقصيبه وهى الخصلة الملتوية من الشعر ويقال لها قصبة .

(٤) السهلوب : الطويل من الناس .

(٥) يشف : يزيد ، أى يزيد العين إذا نظرته .

« الغزل بالمذكر »

يعد الغزل بالمذكر ظاهرة من الظواهر التي تؤكد الإنحلال الأخلاقي في المجتمع الذي يوجد فيه هذا النوع من الغزل الماجن ، ذلك لأنه إذا تغزل الشاعر في امرأة أو فتاة يشيد بجمالها ويصف محاسنها ويبرز مفاتنها ويصرح بحبها ويصف ما حدث له معها من هوى وصبابة فهذا شيء معقول من الممكن أن تقبله الأذواق والعقول بل وتستطيبه ، أما إذا تغزل الشاعر في رجل أو غلام أو طفل فهذا شيء شاذ يتنافى مع الذوق ويخرج عن حد الأخلاق بكل المعايير والمقاييس .

فالغزل كما هو معروف يتصل بالمرأة يصف حسنها ويتحدث عن جمالها ويذكر حال المحب تجاهها من تعلق بها وشغف بحبها وتودد بل وتضرع إليها، أما إذا كان خلاف ذلك فهو خروج عن المألوف وعن الطبيعية وعن الأعراف البشرية التي يسودها الإعتدال .

وقد نشأ الغزل بالمذكر مع بداية العصر العباسي حيث اختلط العرب بالفرس وغيرهم من الأعاجم الذين نقلوا إليهم العادات السيئة الخبيثة التي تتنافى مع العرف والدين والأخلاق .

فالغزل بالمذكر نشأ نتيجة لظاهرة الميل إلى الغلمان وتعشقهم وارتكاب الفاحشة معهم وهي ظاهرة وفدت إلى المجتمع العباسي من قبل الفرس الذين نقلوا هذه العادة السيئة إلى العرب ، حيث نفذت الحضارة الفارسية إلى حياة العرب فبعثت فيها ألوانا من اللهو والمجون والتهتك والخلاعة .

ويرى بعض الباحثين أن الغزل والفاحشة منحدران من أصول مانوية

من اصل المصدر

كما ذهب إلى ذلك الأستاذ [illegible]
تشأت عن اختلاط [illegible]

وأيا كان [illegible]
الأخلاق في العصر [illegible]
في أنحاء الدولة العباسية [illegible]

فقد كثرت [illegible]
التي كانت [illegible]
دار أبي الأصبغ [illegible]
الخلفاء والأمراء [illegible]
يداعبها إلا [illegible]

[illegible]
مقطلبات المجان [illegible]
خاصة [illegible]

فقد أهدى [illegible]
بغلام [illegible]

[illegible]
في هذه الدور [illegible]
أصحاب هذه [illegible]
لهم الخمر [illegible]

---

(١) ص [illegible]
(٢) ص [illegible]
(٣) ص [illegible]

فى شعرهم كل ما يدور فى هذه الدور من نزعات شاذة بينهم وبين هؤلاء الغلمان والسقاة [١].

وليس وجود الغلمان فى أماكن اللهو والمجون وفى القصور والدور بكثرة هو السبب الوحيد لانتشار هذه الظاهرة الشاذة ـ ظاهرة الميل إلى الغلمان بل يرجع أيضا إلى شيوع الجوارى فى هذا العصر وما كن يبذلنه من مجون وفسق وانحطاط حتى أصبحت المرأة سلعة رخيصة مبتذلة ينالها كل من يريدها بلا مشقة أو جهد مما أوجد نفوراً عند أصحاب الانحلال والشذوذ فاتجهوا إلى الغلمان فعلا وقولا شعرياً يصف هذا الفعل ويصور وقائعه وأحداثه .

وعلى أية حال فقد نشأ الغزل بالمذكر فى العصر العباسى الأول نظراً لوجود الأسباب والبواعث التى أدت وساعدت على وجوده وازدهاره فى هذا العصر وأخذ الشعراء يتغزلون فى الغلمان والرجال والأطفال فيصفون جمالهم ويصورون محاسنهم ويشيدون بذلك فى وجوههم وعيونهم وخدودهم وشعرهم وأردافهم واعتدال قامتهم وجمال حديثهم وجمال دلالهم ويصورون كلفهم بهم وتوجعهم من حرقة هواهم ولوعة فراقهم وابتلائهم بألوان الصد والهجران وتصويرهم لطيف المحبوب الزائر فينعمون بأنسه ويتحدثون معه ويبثونه مكنون غرامهم وهيامهم ، ويصورون ما يجرى بينهم من مساوىء ومفاسد كأنهم يتغزلون فى امرأة لا فى رجل دون حياء أو خجل ويكاد يخيل للإنسان حينما يقرأ هذا اللون من الغزل أنه غزل فى امرأة لا فى رجل، ولولا وجود الفارق بين المذكر والأنثى من اضمائر ولولا معرفة المناسبة التى قيل فيها هذا الشعر لما عرفنا أنه غزل فى المذكر أم فى المؤنث .

وكما تناول الشعراء فى غزلهم بالمذكر هذه الأوصاف والأعضاء التى تناولوها فى المؤنث وجدنا أيضا العفة فى القول بجانب الفحش والتهتك جنبا

---

(١) ص ٦١٧ حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة د / يوسف خليف ١٩٦٨ م .

إلى جنب فى هذا اللون من الغزل بالمذكر مثلما وجدناه قبل ذلك فى الغزل بالمؤنث .

فالغزل بالمذكر لا يختلف عن الغزل بالمؤنث فى الأوصاف وتناول الأعضاء والطهر والفحش بل فى كثير من الألفاظ والمعانى .

ويرى الدكتور شوقى ضيف : « أن كثيراً من هذا الغزل لم يكن يصور حقائق واقعة إنما كان يصور حقائق خيالية من بعض الوجوه إذ كان يراد به إلى التندير والفكاهة فى مجالس هؤلاء المجان الخليعين فهم ينظمونه ويتداولونه للضحك والدعابة ... وكأنه يشبه من بعض الوجوه ما قد يجرى على بعض الألسنة فى عصرنا من نكت جنسية »(١) .

وهذا كلام معقول فى حد ذاته إذا لا يعقل أن يكون كل مانظمه هؤلاء المجان من شعراء العصر فى هذا اللون من الشعر كله وقائع حقيقية ثابتة بل كان فيه ما قيل على سبيل الدعابة والفكاهة وفيه ما كان وصفاً وتصويراً لوقائع وأحداث مجونية ارتكبت فعلا مع هؤلاء الغلمان خاصة غلمان الحانات ودور اللهو والفساد .

« وبطبيعة الحال لم يكن فى هذا اللون من الغزل شىء من صدق العاطفية ولا من كذبها أيضا لأن المجال ليس مجالا عاطفيا على الإطلاق ولكن المسألة من أولها إلى آخرها نزعة شاذة منحرفة من نزعات الجسد ، فالحديث عنها لا يمكن أن يكون إلا حديثاً جسدياً شاذاً منحرفاً مثلها »(٢) .

وقد كثر شعراء هذا اللون من الغزل فى العصر العباسى الأول كثرة مفرطة سواء من كان أصله عربى أم أعجمى أمثال . بشار وأبى نواس وحسين

(١) ص ٢٢٢ العصر العباسى الثانى .

(٢) ص ٦١٥ حياة الشعر فى الكوفة / د يوسف خليف .

ابن الضحاك وحماد عجرد ووالبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وسلم الخاسر وابن الرومى ومسلم بن الوليد وأبى تمام وعبد الله بن المعتز والبحترى وسعيد ابن وهب وإسماعيل القراطيسى وعبد الله بن موسى الهادى وعمرو الخاركى وابن أبى الهداهد وغيرهم من شعراء العصر ، إلا أن أبا نواس يعد زعيم الشعراء فى هذا اللون فى عصره دون منازعة ، يعقبه الحسين الخليع ثم بقية الشعراء .

ومما تجدر الإشارة إليه أن شعراء هذا اللون من الغزل الماجن يتخصصوا فيه ولم ينقطعوا إليه بل وجد الغزل بالمؤنث بجوار الغزل بالمذكر .

ويعد والبه بن الحباب فى مقدمة هؤلاء المجان وأكبر شاعر عرفه العصر مجونا وتهتكا ، وهو الذى أفسد أبا نواس وأغراه أن يسلك هذه السبيل بل دفعه إليها دفعا[1] ، بل إنه هو الذى يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذى يخنق كرامة الشباب والرجال خنقا »[2] .

ويرى الدكتور طه حسين : أنه من أشد الشعراء إمعانا فى المجون وإسرافاً فى الفسق والفجور وأن أخباره القصيرة المبتورة لا تمثله أقل فجوراً وعبثا من أبى نواس أو مطيع أو حماد بل ربما تمثله أشد منهم صراحة فى القول وإسرافاً فى الفحش »[3] .

إذن كثر شعراء الغزل بالمذكر فى هذا العصر كثرة كبيرة وبرز منهم من تفوق عليهم وكثرت أشعار الغزل بالمذكر عنده أمثاله : والبة وأبى نواس والخليع .

يقول أبو نواس يتغزل فى غلام مسيحى [4] :

---

(١) ص ١٥٠ ج ١٦ الأغانى .

(٢) ص ٧٣ العصر العباسى الأول د / شوقى ضيف .

(٣) ص ٢٦٩ ج ٢ حديث الأربعاء .

(٤) ص ٣٥٥ ديوانه .

قل لذى الطارف الخلوب ولذى الوجه الغضوب(١)
ولمن يثنى إليـــه الـ حسن أعناق القلوب
يا قضيب البان يهتز على دعص كثيب
قد رضينا بسلام أو كلام من قريب
فبروح القدس عيسى وبتعظيم الصليب
قف إذا جئت إلينا ثم سلم يا حبيبى

فأبو نواس يتغزل فى غلام وكأنه يتغزل فى امرأة فيصفه بنفس الصفات التى توصف بها المرأة عند التغزل بها ، فيرى عينه جميلة ساحرة تأخذ بالقلوب وتأسر الأفئدة ، وأن قامته جميلة مستوية تشبه قضيب البان فى استقامته وجماله وأن دعصه ثقيل ككثيب الرمل

فهذه الأوصاف أوصاف تقليدية كثيراً ما تغنى بها الشعراء عند تغزلهم بالمرأة منذ العصر الجاهلى إلا أن الشاعر هنا جعلها فى غلام وهو ما اختلف عن الشعراء السابقين فيه

كما يلاحظ أيضاً عفة الأبيات وخلوها من الفحش والتهتك والفسق والخلاعة ، حيث اكتفى بوصف الغلام وتصويره ورضائه منه بالسلام واكتفائه بالحديث معه .

ويقول كذلك فى غلام اسمه « موسى » يتغزل فيه(٢) :

مرحبا ياسمى من كلم اللـ ـه وأدنى مكانه تقريبا(٣)
وشبيه الذى تلبث فى السجـ ن سنيناً وكان براً نجيبا(٤)
وابن قارى القرآن غضاً كما أنـ زل ، قد سمت قلبى التعذيبا

(١) الخلوب : الذى يخلب الألباب كما يخلب البرق الأبصار .
(٢) ص ٣٤٦ ديوانه .
(٣) الذى كلم الله : موسى عليه السلام .
(٤) تلبث : أقام ومكث .

شعر الطبيعة :

ظـل وصـف الطبـيعة فى الشعر العربى القديم منذ العصر الجـاهلى حـتى أواخر العصر الأموى جزءاً من قصيدة ولم يبرز وصـف الطبيعة فى هذه الفترة كغرض مستقل أو موضوع شعرى خـاص بقصـيدة بعيـنها وإنما جاء وصف الطبيعة فى ثنايا قصائد أخرى تتضمن مدحاً أو فخراً أو غزلاً أو غير ذلك .

وظـل هـذا اللون من وصف الطبيعة على هذه الشاكلة حتى جاء العصر العباسى فأصبح شعر الطبيعة موضوعاً وغرضاً شعرياً قائمـا بذاتـه حيـث جاءت القصيدة فى وصف الطبيعة لم يشاركها غرض آخر .

ولـيس معنى ذلك أن كل وصف الطبيعة فى العصر العباسى الأول كانـت تسـتقل بـه القصائد بل وجدت القصيدة المستقلة فى وصـف الطبيعة بجوار وصف الطبيعة فى قصيدة متعددة الأغراض والموضوعات وفى قصائد ذات غرض أصلى غير وصف الطبيعة .

وتـبعاً للـتقدم الحضـارى الذى طرأ على المجتمع العباسى والحياة الجديدة التى عاشها المجتمع سار الشعراء فى وصف الطبيعة مع هذه الحياة الجديدة وهذا التيار الجديد بجوار تيار آخر راح ينهج نهـج القدمـاء فـى وصفهم للطبيعة بدافع الحنين إلى أمجاد العرب وعـاداتهم وتقاليدهم ورغبة فى إرضاء الخلفاء العباسيين الذين كانوا يشـجعون الشـعراء علـى محاكـاة الأقدميـن فى نهجهم ولغتهم

وموضـوعاتهم فوجد من شعراء العصر من وصف : الناقة والخيل والأطـلال والسـحب والأمطار وغيرها من مظاهر الطبيعة القديمة فضـلاً عـن وجـود وصف الطبيعة الجديدة التى جدت فى العصر العباسـى وأوجدتهـا حضارتهم وبيئتهم الجديدة : فوصف الشعراء الحدائـق والرياض والأزهار والأنهار والقصور والبرك والفوارات والـثمار والفاكهـة وغـيرها من مظاهر الطبيعة التى استجدت فى عصرهم سواء كانت حية أم صامتة .

" وكـان الشـاعر العباسى يحتفظ أحياناً فى مقدمات مدائحه بوصـف الصحراء أحياناً وأحياناً أخرى يتركها إلى وصف الطبيعة فـى الحاضـرة ببساتينها ورياحينها " وراح يخص الطبيعة بقصائد ومقطوعات خاصة بها حتى أصبحت الطبيعة موضوعاً جديداً واسعاً فى هذا العصر وأحياناً كان يمزج الطبيعة بالغزل أو بوصف الخمر أو يقف عند وصف الطبيعة بذاتها .

تعددت مشاهد الطبيعة فى العصر العباسى الأول وشملت مظاهر وموضوعات جديدة لم يعرفها الشعر العربى من قبل – وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً .

وقـد أكـثر الشعراء العباسيون من وصف السحب والأمطار كمـا أكثروا من وصف الرياض والأزهار خاصة فى فصل الربيع التى تبرز فيه الطبيعة بمفاتنها وراحوا يعبرون أحياناً عن مشاعرهم وأحاسيسـهم نحوهـا خـلال وصـفهم لهـا وراحوا يصبون عليها

مشـــاعرهم وعواطفهـــم كأنها أشخاص حية تحس وتشعر كما يحس ويشـــعر الإنســـان ويتجلى ذلك فى قول مطيع بن إياس فى مخاطبته لنخلتى حلوان فيقول :

أسْـعدانى يـا نخلـتى حُلـوان　　وابكـيالى مـن ريـب هذا الزمان

واعلمـا أن ريـبه لـم يزل يفـ　　ـرق بيـن الألّافِ والجـيران

ولعمـرى لـو ذقـتما ألـم الفُرْ　　قـة أبكاكمـا الـذى أبكـانى

أسـعدانى وأيقـنا أنّ نحْسـا　　سـوف يلقاكمـا فتفـترقان

كم رمتنى صـروف هذى الليالى　　بفـراق الأحبـاب والخلان

ووجدنـا شـعراء كثيرين يهتمون بوصف مظاهر الحضارة العباسية الجديدة فوصفوا القصور والبساتين ووصفوا الطبيعة صيفها وشـتاءها وخريفها وربيعها وليلها ونهارها وأزهارها وورودها٠كما وصـفوا المعـارك والحـروب والأسـد وكـلاب الصيد والطيور والحـيوانات والحشرات ، وعلى هذا النحو نفذ الشاعر العباسى من وصـف الشاعر القديم إلى وصف بيئته بجميع عناصرها ومظاهرها الحية والصامتة .

وخير ما يصور وصف الطبيعة العباسية قول أبى تمام يصف الطبيعة فى فصل الربيع ويصور جمالها ويصف أزهارها فيقول :

نزلـت مقدمـة المصيف حميدةً　　ويـد الشـتاء جديـدة لا تنكرُ[1]

---

(١) يد الشتاء : فضله .

لـــولا الـــذى غرس الشتاءُ بكفه ... لاقـــى المصيفُ هشائما لا تثمر(١)

مـــا كانـــت الأيـــام تُسلبُ بهجة ... لـــو أنّ حُسْنَ الروض كان يعمر(٢)

أو لا ترى الأشياء إذ هى غُيرتْ ... سمجت وحُسن الأرض حين تغير؟(٣)

يـــا صـــاحبىّ تقصـــيا نظـــريْكما ... تـــريا وجـــوه الأرض كيف تصوَّرُ

تـــريا نهـــارا مشمســـا قد شابه ... زهـــر الـــرُبا فكأنمـــا هو مُقمر(٤)

دُنـــيا معـــاش للـــورى حتى إذا ... جُلـــى الربـــيعُ فإنما هى منْظر(٥)

أضـــحت تصوغُ بطونها لظهورها ... نـــوراً تكـــاد له القلـــوب تنورُ(٦)

مـــن كـــل زاهرة ترقْرق بالندى ... وكأنهـــا عيـــنٌ إلـــيك تحـــدَّرُ(٧)

حتى غدت وهداتها ونجادهـــــا ... فئتين فى خلَـــــع الربيع تبخترُ(٨)

ويصـــف البحـــترى إيوان كسرى كما هو موجود فى سينيته الـــتى تعـــد من عيون الشعر العباسى وصفا رائعاً قل مثيله وهو لا يبارى فى تصويره الحسى حتى وكأنه ينقل المشاهد بحذافيرها وكأننا نلمسها بأيدينا .

---

(١) المصيف : المراد الربيع . هشائما : نباتات ذابلة .

(٢) تسلب بهجة : ينتزع جمالها .' يعمر : يدوم .

(٣) سمجت : قبحت .

(٤) زهر الربا : زهر المرتفعات .

(٥) جُلى : أظهر .

(٦) نوراً : زهراً .

(٧) ترقرق بالندى : تلمع فوقها قطرات الندى .

(٨) وهداتها : منخفضاتها . خلع : ملابس .

ومـــن وصـــفه الـــبديع للطبيعة أبياته التى يصف فيها الربيع فيقول :

أتـــاك الربيع الطلق يختال ضاحكا	مـــن الحســـن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز[٣] فى غسق الدجى	أوائـــل ورد كـــن بـــالأمس نوَّمـــا
يفـــتقها بـــرد الـــندى فكأنـــه	يبـــث حديـــثاً كـــان قـــبل مكـــتما
فمـــن شـــجر ردَّ الربـــيعُ لباسه	علـــيه كما نشرت وشياً منمنما[١]
أحـــل فـــأبدى للعـــيون بشاشـــة	وكان قذى للعين إذ كان محرما[٢]
ورقَّ نسيم الريح حتـــى حسبتهُ	يجيئ بأنفـــــــــاس الأحبَّة نعَّمـــا

ويعـــد ابـــن الرومى وعبد الله بن المعتز وعلى بن الجهم من أكـــبر شـــعراء الطبيعة فى العصر العباسى الأول ، فقد شغف ابن الـــرومى بالطبـــيعة شغفاً يفوق كل وصف حتى أصبح ابن الرومى يـــتقدم شعراء العربية فى الإحساس بخفقات الطبيعية وهمساتها حتى ليشبه من بعض الوجوه شعراء الرومانسية الغربية الذين يذوبون فى الطبيعة .

* * *

---

(١) النيروز : أول أيام السنة الشمسية عند الفرس .

(٢) المنمنم : المُحسَّن .

(٣) أحل : بمعنى حلّ وأحرم بمعنى : غاب كالمحل والمحرم فى الحج.

. الخصائص الفنية للشعر العباسى :

يختلف الشعر العربى فى العصر العباسى الأول فى خصائصه وسماته الفنية عنه فى العصور السابقة كاختلافه عنها فى مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية والحضارية والأدبية وذلك لأن الشعر إنما هو بمثابة المرآة التى تعكس حياة الأمة وأخلاقها وسياستها وثقافتها وآدابها وأحداثها المختلفة وتظهر فيها كل المظاهر والجوانب المتعددة ، ولهذا اختلف الشعر العباسى فى خصائصه وسماته عن الشعر العربى فى مختلف عناصره وسماته :

١- فمن حيث منهج القصيدة وطريقة نظمها والخطة التى سار عليها الشعراء فى قصائدهم تغير تغيراً واضحاً ونحا الشعراء فيه نحواً جديداً عما عرفه السابقون .

فقد كان الشعراء السابقون يستهلون قصائدهم بالأطلال وذكر الرحيل والرحلة ووصف الراحلة والصحراء والغزل بالمحبوبة وظل هذا النهج منذ العصر الجاهلى وتمسك به الشعراء فى العصر الإسلامى ثم عظم هذا النهج والتقليد لمناقب الجاهلية وطباع البداوة فى عصر الأمويين لأنهم رسخوا فى أذهان الناس أن مناقب الجاهلية أفضل ما يتبع ، وظل هذا النهج التقليدى للقصيدة ملتزماً التزمه الشعراء فى العصر الأموى حيث جعلوا الجاهليين مثالاً يقتدى بهم فى الشعر .

فلما جاء العصر العباسى وغُلب العرب وعلت كلمة الفرس

وكانــت لهــم الكلمــة الأولى في مختلف مظاهر الحياة راح شعراء العصــر يــتخففون شيئاً فشيئاً من هذا النهج وذلك الالتزام وحاولوا الخروج على هذا النهج والتحلل من هذه القيود القديمة للشعر العربى وراح الشــعراء ينــتقدون هــذه الطريقة وهذا النهج القديم العربى المــوروث فــى مجالســهم الخاصة وأول من انتقد هذا النهج القديم للقصــيدة العربــية هو : مطيع بن إياس حيث قال لشخص من أهل الكوفة وتحدث معه فى ذلك :

لأحســنُ مــن بيد يحار بها القطا ومــن جبلى طيئ ووصفكما سلْعا

تلاحظ عينى عاشقين كلاهمــا له مقلة فــى وجه صاحبه ترْعى

وكان هذا هو حال أكثر الشعراء وإن لم ينظموه حتى جاء أبو نــواس وجاهــر بهذه الدعوة وراح ينكر طريقة العرب القدماء فى المقدمــة الطللية والغزلية ، وراح أبو نواس يشن حرباً شعواء على هذه المقدمة ويدعو الشعراء أن يستبدلوها بوصف الخمر فيول :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هنــد واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقوله :

صفــــة الطلول بلاغــة القدْم فاجعل صفاتك لابنــــة الكرم

وقوله :

عــاج الشــقى على رسم يسائله وعجــت أســأل عــن خمارة البلد

تبكى على طلل الماضين من أسد لا در درك قــل لى من بنو أسد ؟

لا در در الذى يبكــــى على طلل ولا صفا قلب من يهفو إلى وتــــد

وهكـــذا راح أبـــو نواس يجاهر بدعوته ويدعو الشعراء لأن يـــتركوا المقدمـــة الطللـــية ويبدأوا قصائدهم بوصف الخمر ولاقت دعوتـــه هـــذه استجابة من الشعراء وراح الشعراء يستبدلون المقدمة الموروثة بمقدمات أخرى جديدة : كوصف الخمر أو وصف الطبيعة أو غـــيرهما وكـــان على رأس هؤلاء الشعراء أبو نواس وغيره من الشـــعراء الموالى حيث كان دأبهم الطعن على العرب والثورة على تقليدهم والتنقص من طريقتهم والسخرية منهم .

ولمـــا فطن الخليفة "هارون الرشيد " إلى ما وراء هذه الدعوة الخبيـــثة وأنها لا تقتصر على محاولة التجديد فى الفن الشعرى زجر أبـــا نـــواس وســـجنه على اشتهاره بالخمر وأُخذ عليه المواثيق ألا يذكـــرها فى شعره وكأنه كلفه الرجوع عنها إلى النظم على طريقة الجاهلية ، فقال :

أعـــر شعرك الأطلال والمنزل القفرا ... فقـــد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعـــانى إلـــى نعت الطلول مسلَّط ... تضـــيق ذراعـــى أن أردَّ له أمـــرا
فسمعاً أمير المؤمنين وطاعـــــة ... وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

وبـــناء علـــى مـــا تقدم فقد تفنن شعراء العصر فى شعرهم ورأيـــنا نهجـــاً جديـــداً للقصيدة العباسية حيث راح الشعراء يبدأون القصـــيدة بمقدمـــات جديـــدة : كوصف الخمر أو وصف الطبيعة أو الغـــزل بالمذكـــر أو مقدمة التنجيم وغيرها مع وجود النهج التقليدى

القديـــم جنـــباً إلى جنب فلم يزل جملة الشعراء محافظين على نهج القصـــيدة وأوضـــاعها الموروثـــة منذ الجاهلية فى ابتدائها بالغزل والنســـيب والأطـــلال والظعائـــن ووصف الناقة والرحلة ووصف الصـــحراء ومشـــاهدها والتمهيد بذلك للغرض المطلوب من مدح أو هجاء أو غيرهما وإن لم يكن الشاعر قد سلك البادية أو ركب الناقة.

إذن وجدنا النهجين فى نهج القصيدة العباسية جنباً إلى جنب : المـــوروث القديـــم والجديـــد المبتكر حتى عند هؤلاء الشعراء من الموالـــى وحتى عند أبى نواس نفسه صاحب الدعوة التجديدية نجده يكـــثر مـــن مقدمات قصائده التقليدية فى شعره ، فضلاً عن الحفاظ علـــى قافية القصيدة ووزنها الواحد ، وقد مر ذكر الأمثلة التى تؤيد ذلك .

***

٢- أما من ناحية الأسلوب :-

وهــو طريقة الأداء اللفظى لما نسقه الفكر من معان ونظمه العقــل مــن أفكار ، أو طريقة التعبير بالألفاظ المترتبة على معرفة ترتيــب المعانى فى النفس -- فقد صاغ الشعراء العباسيون أساليبهم علــى مثال حضارة الدولة وثقافتها وطريقة تذوقها للفنون " وأثر فى أســلوب الشــعر ومعناه فى هذا العصر ما نقل إلى العربية أو حفظ فــيها من آداب الفرس وأخبارهم فاكتسب الشعر خيالاً لطيفاً وزادت فيه معان جديدة ".

ومــال الأســلوب الشــعرى إلى الرقة فى النسج والدقة فى التصــوير والدماثــة فــى التعبير وشاعت فيه ألوان البلاغة وألوان الزيــنة وضــروب البديع وصاحب ذلك نوع من الفخامة والجزالة والمتانة .

وظهــرت الــرقة والرشاقة فى الأساليب ولا سيما فى شعر الغــزل والمجون وعند المجددين من الشعراء أمثال : بشار بن برد وأبــى نواس ، فضلاً عن الأساليب الفخمة القوية الأسر ، وقد اتخذ الــبديع مذهباً شعرياً – أو بدا كذلك – فى فنون الشعر العباسى منذ بشــار بن برد وتابعه مسلم بن الوليد وجاء أبو تمام وأكثر من شعره فيه واتخذه مذهباً فنياً حتى كان موضع نقد من النقاد والعلماء ثم جاء عــبد الله بن المعتز فألف كتابه "**البديع**" ليقرر هذه الحقيقة ويؤصلها فى الشعر العربى .

ومـــال الشـــعراء فى ألفاظهم إلى السهولة والوضوح والقرب فضلاً عن وجود الألفاظ القوية المتينة بل والغامضة أحياناً .

وقد أكثر الشعراء الأعاجم من إدخال بعض الألفاظ الأعجمية خاصـــة الفارســية فـــى أشعارهم كأسماء المآكل والملابس وأدوات الزيـــنة والأعياد الفارسية وغيرها وكان أبو نواس هو أكثر الشعراء فى ذلك لعصبيته للفرس .

فضـــلاً عـــن استعمال الألفاظ والتعبيرات والأساليب الكلامية وتعبيرات العلوم والفنون والصناعات التى جدت فى الدولة العباسية وشاع استعمالها فخالطت حينئذ لغة الشعر .

وقد أشاعت الحضارة العباسية فى أسلوب الشعر : التأنق فى الصـــياغة مـــن: الـــرتابة والزينة والسهولة واللين والوضوح والرقة فضلاً عن فخامة الأسلوب الذى لا ينافى الرقة والسهولة .

* * *

٣- أما من ناحية المعانى : -

فإن المعانى فى جملتها تقوم على نوعين :

معان عامة مشتركة: يشترك فيها كل الأجناس وكل العصور كتشـبيه الشجاع بالأسد والكريم بالبحر . والتفاضل بينهما يكون فى روعة التصوير ودقة التعبير .

ومعـان : خاصة بديعة جديدة : لا يستطيع الوصول إليها إلا الفكر الراجح والخيال الصبوح وتبلغ الذروة حين يجتمع إليها براعة الصياغة وحسن التصوير .

ويعـد الشعر العباسى بأنه الشعر الذى احتفل كثيراً بالمعانى كـل الاحتفال واهتم بها اهتماماً واضحاً ، فقد كان الاعتقاد فى شعر الجاهلية أنهم لم يتركوا معنى من معانى الشعر لم يطرقوه ، والحقيقة أنهم طرقوا أكثر المعانى التى تخطر لابن البادية.ولكن الحضارة لها معـان خاصـة لأنها توسع الخيال وتفتق القرائح ، فقد حفل الشعر العباسى بمعانى الأقدمين وتشبيهاتهم بجانب ما ولده من معان جديدة أوحـت بها حضارتهم وثقافاتهم وحياتهم الجديدة فضلاً عن الثقافات الأجنبـية وكانـت دقيقة التصوير بديعة الخيال ومن أشهر أصحاب المعـانى الجديدة : أبو تمام وابن الرومى وإن حفل الشعر العباسى بمعان جديدة لمعظم شعراء العصر إن لم يكونوا كلهم .

فقد زاد بشار وأبو نواس ومسلم بن الوليد وعشرات الشعراء العباسـيين فى المعانى عما عرفه الشعراء السابقون ، فالشعر سار

علـــى ســـنة الارتقـــاء مثل سائر أحوال الحياة ، ومن أمثلة المعانى الجديدة المبتكرة قول بشار:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشــق قــبل العين أحياناً
قالوا بمن لا نرى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفـــى القلب ماكانا

ومن هذا القبيل قول أبى نواس :

فكـــأنى ومـــا أُزَيِّـــن مـــنها قعـــدىّ يزيِّـــن التحكـــيما [١]
كلّ عن حمله السلاح إلى الحــر ب فأوصى المطيق ألا يقيمـــــا

ويقول أبو تمام :

وإذا أراد الله نشـــر فضـــيلة طويــت ، أتــاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جـــاورت ما كان يعـــرف طيبُ عَرْف العود

ويقول ابن المعتز :

وتحت زنانير شددْنَ عقودهـــــا زنانير أعكان[٢] معاقدها الســـرر

هــذا والأمــثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى من المعانى الجديدة المبــتكرة الــتى جــاءت بها مخيلة الشعراء العباسيين ، فضلاً عما أخذوه من المعانى القديمة أو توسعوا فيه ولا سيما النسيب والغزل .

وأخــذت الدقة فى تصوير المعانى تظهر ظهوراً واضحاً فى شــعر العصر ، وكان زعيم هذا الباب : بشار وأبو نواس وأبو تمام وابــن المعتز وابن الرومى حيث اجتهد هؤلاء الشعراء فى الاحتفال

---

(١) والقعدة : فرقة من الخوارج كفرت عليا ابن أبى طالب لقبوله التحكيم .
(٢) أعكان : طيأت .

بمعانيهم وترتيبها وتنسيقها وبذل كل الجهد فى سبيل تزيينها وتوليدها والإتيان بالدقائق واستقصائها وتضخيمها بكل ما فى وسائل الفكر من قـــوة وصفاء وثقافة ، وعنوا بترتيب الأفكار والمنطق ، حيث ظهر أثـــر المـــنطق اليونانى فى معانى بعض هؤلاء الشعراء وأفادهم فى ترتيب الأفكار ، يقول البحترى :

كلفـــتمونا حـــدود مـــنطقكم والشـــعر يغـــنى عـــن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنط ق مـــا نوعـــه ومـــا ســـببه

والشعر لمح تكفى إشارتـــــه وليس بالهـــــذر طولت خطبه

فهـــناك معـــان شعرية حدثت بدخول العلوم القديمة إلى اللغة العربية واستعارها الشعراء فى معانيهم وألفاظهم : كالتناهى والتوليد والـــتجزؤ ، والمعـــاد ، كما أخذوا معانى من أخبار اليونان ومعانى الفرس وألفاظهم فضلاً عن الألفاظ السريانية ومعانيها .

***

٤- أوزان الشعر وقوافيه : -

نظـم الشـعراء العباسـيون أشعارهم على كل بحور الشعر العربـي المعروفة : الطويلة منها والقصيرة والمجزوءة والمشطورة والمنهوكة ، ونظموا القصيدة والمقطوعة الشعرية .

وكانـت القصـيدة الطويلة تكاد تقتصر على الشعر الرسمى كشـعر المـدح والرثاء والتهنئة ، بينما تشيع المقطوعات فى شعر: الغزل والمجون والزهد والحكمة ، ولكن ليس معنى ذلك أن القصيدة الطويلة قد اقتصرت على الشعر الرسمى وأن المقطعات قد اختصت بغيره بل كان ذلك هو الأكثر.

وراج فى هذا العصر استعمال الأبحر القصيرة التى لم ينظم علـيها العرب إلا قليلاً فى أشعار : المجون والغزل والتغنى بالشعر ومقطعات الهجاء .

ومضـى الشـعراء ينظمون فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفـى وزن المجتـث الذى اقترحه الوليد بن يزيد ، يقول مطيع بن إياس على وزن المجتث :

ويلـي ممـن جفـاني ... وحـبه قـد بـراني

وطـيفه يلقـاني ... وشخصـه غـير داني

أغرُّ كالبـدر تغشـى ... بحسنـه العينـان

كذلـك عرف الشعراء العباسيون أوزاناً جديدة : كالمضارع والمقتضب .

أمـــا المضـــارع فأجزاؤه : مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن ودائما تحذف منه التفعيلة الأخيرة ، مثل قول أبى العتاهية :

أيـــــا عُتْبَ ما يضــــرّ ك أن تطلقــــى صِفـــادى

والمقتصب : أجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن وتحذف منه التفعيلة الأخيرة كقول أبى نواس :

حـــامل الهـــوى تعـــبُ يسْـــــتخفُّهُ الطــــــربُ

إنْ بكــــــى تَحِـــقٌ له ليس ما بـــــــه لعــــبُ

كذلــك اكتشف الشعراء العباسيون بحر : المتدارك أو الخبب ويروى أن الخليل بن أحمد لم يسجله فى عروضه بل عرفه الأخفش تلميذه ، ومنه قول أبى العتاهية :

هـــمُّ القاضـــى بيــت يُطْربْ قــال القاضـــى لمـــا طولبْ

ما فـــــى الدنيــــا إلا مذنبْ هذا عُذر القاضـــــى واقلبْ

كذلك نظم الشعراء العباسيون على بحور مهملة مثل : عكس المنســـرح وعكـــس البسيط وعكس المديد فالأول وزنه : مفعولات مستفعلن فاعلن . ومن عكس البسيط قول أبى العتاهية :

للمنون دائرات يُدرْن صرْفهـــا هـــــُنَّ ينتقيننا واحداً فواحدا

ومن عكس المديد قوله :

عُتْبَ ما للخيال خبرينى ومالى لا أراه أتانى زائراً مذْ ليالــــى

وكما نظم الشعراء العباسيون على أوزان غير أوزان العرب

اخـــترعوها علـــى عكـــس بحور الخليل بن أحمد وكما نظموا أيضاً القصيدة الطويلة على قافية واحدة نظموا كذلك القصيدة الطويلة على قوافى عديدة ونظموها على شكل مقطعات كل منها على قافية خاصة فنظموا المزدوج والمسمط ، فالمزدوج : قافيته لا تطرد فى الأبيات بل تختلف من بيت إلى بيت بينما تتحد فى الشطرين المتقابلين وعادة تكون من بحر الرجز ، وعلى ذلك نظم أبو العتاهية مزدوجته " **ذات الأمثال** " .

فالشـــعر المـــزدوج يـــتألف من مشطورين على قافية ثم من مشـــطورين آخرين وهكذا ، وأكثر ما كان يستعمل فى نظم الأمثال وحكايـــات الحيوانات ونظم القصص وقواعد العلوم ومن الرباعيات قول بشار :

ربابـــــة ربـــــة البيـــــت تصـــب الخـــيل فـــى الزيت

لهـــــا عشر دجاجـــات وديـــــكٌ حَسَنُ الصـــوتِ

وهذه الرباعيات كثرت فى شعر أبى نواس خاصة فى الغزل والخمر وعند أبى العتاهية فى الغزل والزهد كقوله :

المـــوت بين الخلق مُشتركٌ لا ســـوقة يـــبقى ولا ملـــكُ

ما ضرَّ أصحابَ القليل ومـــا أغنى عـــن الأملاك ماملكوا

أمـــا المســـمطات : فتـــتألف من أدوار وكل دور يتركب من **أربعـــة شطور أو أكثر وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ماعدا الشـــطر الأخير فإنه يستقل بقافية مختلفة وفى الوقت نفسه يتحد فيها**

مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة ويسمى : عمود المسمط . .

وسمى مسمطاً : من السمط وهو قلادة تنظم من جواهر تجتمع عند جوهرة كبيرة وهناك المسمط المربع وهناك المسمط المخمس ، فمن الأول:

سلاف دنٍّ كمشمس دَجْنِ

كدمع جَفْنِ كخمر عَدْنِ

يا منْ لحاني على زماني

اللهو شاني فلا تلمْني

والمخمس قول أبى نواس أيضاً :

يا ليلة قضيتها حلوة مرتشفاً من ريقها قهوةْ

تُسكر منْ قد يبتغى سكْرةْ ظننتها من طَيبها لحظة

ياليت لا كان لها آخرْ

وكأن هذا اللون من الشعر هو الذى مهد لظهور فن الموشحة وهو الذى ألهم الوشاحين فى الأندلس أن يخترعوها .

ونسب بعضهم لان المعتز :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

إلى آخر الأبيات حتى ذهب البعض إلى القول بأن عبد الله بن

المعتز هو أول وشاح في العربية ، كما ينسب لديك الجن صنعه لمنظومة على هذا النحو :

قولي لطيفك ينثني ... عن مضجعي عند المنامْ
عند الرقاد عند الهجوع ... عند الهجودْ عند الوسنْ
فعسى أنام فتنطفي ... نارٌ تأجّجُ في العظام
جسد تقله الأكفٌ على فراش من سقام
من قتادْ من دموع ... من وقودْ من حزنْ
أما أنا فكما علمـ ... ـتِ فهل لوصلك من دوام
من معادْ من رجوع ... من وجودْ من ثمنْ

فذهب البعض إلى أن "ديك الجن" هو أول وشاح في العربية .

ولكن الراجح أن مقدم بن معافى القبرى الأندلسى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المروانى هو أول من اخترع فن الموشح وكأنما عرف نص ديك الجن واطلع عليه فطوره وهداه إلى اختراع الموشح ونظم على نمطها وكتب لهذا اللون أن يشيع بعده فى الأندلس باسم الموشحات ثم انتقلت الموشحة بعد أن اكتملت عناصرها من الأندلس إلى الشرق العربى وبعد تطورها على يد الأندلسيين [١] .

***

(١) انظر كتابنا : الأدب العربى فى ظلال الأندلس .

أشهر شعراء العصر العباسى الأول : -

أعلام الشعراء : بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمام وعلى بن الجهم والبحترى وابن الرومى وعبد الله بن المعتز .

شعراء السياسة والمديح : أبو دلامة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر والسيد الحميرى ومنصور النمرى وديك الجن ودعبل الخزاعى ، وأبان اللاحقى وأشجع السلمى ، وأبو الشيص وعلى بن جبلة والخريمى وأبو على البصير وأحمد بن طاهر وابن دريد وغيرهم.

شعراء الغزل : العباس بن الأحنف وربيعة الرقى وخالد بن يزيد الكاتب ومحمد بن داود الظاهرى وفضل وغيرهم .

شعراء اللهو والمجون والزندقة : حماد عجرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس والحسين بن الضحاك وغيرهم .

شعراء الزهد والتصوف : عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة ومحمود الوراق والحلاج والشبلى .

شعراء الاعتزال : العتابى وبشر بن المعتمر والنظام ، فضلا عن المئات من الشعراء الذين وجدوا فى العصر العباسى الأول وعلى أيديهم كانت نهضة الشعر وازدهاره فى هذا العصر .

***

المعتزلة ومذهبهم وأثرهم فى الشعر العباسى : -

تعـد المعــتزلة أهم فرقة يدين لها علم الكلام بما أثارت من مسائل ووضعت من مبادئ وأصول ، حيث أثرت فى الحياة العباسية تأثــيراً كبيراً فقد أثرت فى ثقافته وعلومه وأدبه شعراً ونثراً ، وأهم تعاليم المعتزلة ومبادئها تكمن فى خمسة أصول عامة :

١ - **القــول بالتوحــيد** : حيث يعد هذا المبدأ من أهم مبادئهم وإن كان كل المسلمين يقولون بالتوحيد إلا أنهم بالغوا فى ذلك وذهــبوا فى تفسيره مذهبا خاصا وبسطوا الرأى فى التوحيد والتنزيه فقالوا: " إن الله واحد ليس كمثله شيىء وليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ، ولا لحم ولا دم ، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ، ولا مجســة ، ولا بــذى حــرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوســة ، ولا طــول ولا عــرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افــتراق ولا يــتحرك ولا يســكن ولا يتبعَّض ، وليس بذى جهات...

ولا يوصــف بشيىء من صفات الخلق الدالة على حدثتهم .. ولــيس بمحدود ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الأقدار ولا تحجــبه الأستار ولا تدركه الحواس .. وكل ما يخطر بالبال فغــير مشبه له .. لم يزل سابقا متقدماً للمحدثات موجوداً قبل

المخلوقـــات ولـــم يزل عالماً قادراً حياً ولايزال كذلك لا تراه العيون ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأوهام .. عالم قادر حـــى لا كالعلماء القادرين الأحياء وأنه القديم وحده ولا قديم غيره ، ولا إله سواه ولا شريك له فى ملكه ولا وزير له فى ســـلطانه ، ولا معيـــن على إنشاء ما أنشأ وخلق ما خلق ولم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شيىء بأهون عليه من خلق شيىء آخر ولا بأصعب عليه منه ، ولا يجوز عليه اجـــترار المنافع ولا تلحقه المضار ولا يناله السرور واللذات ولا يصل إليه الأذى والآلام الخ .

٢- **العدل** : ويعد من أهم أصول عقيدتهم ، والمؤمنون جميعا يعـــتقدون بعـــدل الله ولكـــن المعتزلة تعمقوا فى معنى العدل وحدوده ومن أهم ما قالوه فى ذلك :

أولاً : أن الله يريد خير ما يكون لخلقه وأنه يسير بهم إلى غاية.

ثانياً : أن الله تعالى لا يريد الشر ولا يأمر به .

ثالـــثاً : أن الله تعـــالى لم يخلق أفعال العباد لا خيراً ولا شراً وأن إرادة الإنســـان حرة والإنسان خالق أفعاله ومن أجل هذا كان مثابا على الخير معاقباً على الشر .

٣، ٤ : الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين : حيث يرى المعتزلة أن الإيمان : تصديق واعتقاد وعمل فمن صدق بالله

ورسوله دون عمل ما أمر به لم يكن مؤمنا وان الإيمان يزيد ويـــنقص بالأعمـــال ، وقالوا : إن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد وأن الكبائر بعضها يصل إلى الكفر : كمن شبه الله بخلقه أو جوّره فى حكمه أو كذّبه فى خبره .

وهـــناك كبائر أقل منها منزلة ويسمى مرتكبها فاسقا والفسق مـــنزلة بيـــن المنزلتين : لا كفر ولا إيمان فالفاسق فى منزلة بين المنزلتين .

وربـــط المعتزلة الثواب والعقاب بالأعمال ربطاً حتمياً وقال بعضـــهم : يجـــب على الله أن يثيب الطائع ويعاقب العاصى مرتكـــب الكبـــيرة وأن مرتكـــب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفوا الله عنه لأنه أوعد العقاب على الكبائر فلو لم يعاقب لزم الخلف فى وعيده.وقالوا : إن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ولو صدق بوحدانية الله وآمـــن برسله لقوله تعالى : **﴿ بَلَـــى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾** .

٥- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : والمسلمون جميعاً يشتركون فى هذا الأمر كمبدأ عام ولكن الاختلاف فى حدود الأمـــر بالمعـــروف والنهى عن المنكر منذ عهد الصحابة : فمـــنهم من رأى هذا الوجوب يكفى فيه القلب واللسان إن قدر

علـيه ولا يلجـأ إلى القوة.ورأى ذلك : سعد بن أبى وقاص وأسـامة بن زيد وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة لذلك لم يشـتركوا فـى القـتال مع على أو معاوية . وتبعهم فى هذا الرأى أحمد بن حنبل وكثيرون .

بيـنما يـرى البعض أن القوة والسيف فى الأمر بالمعروف والـنهى عـن المنكر واجب إن لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك وسـار على هذا المبدأ:على ومعاوية وعائشة ومن قاتل معهم وعلى هذا المبدأ جرى المعتزلة والخوارج .

كذلـك قال المعتزلة بخلق القرآن ، وقد ظهر هذا الرأى فى أواخـر الدولة الأموية على لسان الجعْد بن دِرْهم " معلم مروان بن محمـد آخـر خلفاء بنى أمية ثم أخذت المعتزلة هذا الرأى منه ومن الجهـم بـن صفوان الترمذى الذى قتله سالم بن أحور بمـرو عام ١٢٨ هـ حيث كان ينفى الصفات ".

وتوسـعوا فـيه وظـل ينتشـر وتؤلف فيه الكتب والأشعار والكـتابات حـتى جاء المأمون واتخـذ هـذا الرأى الدين الرسمى للدولة .

ثـم جاء المتوكل فأبطل القول بخلق القرآن وهدد من قال به وحاربه ، مثلما فعل بقاضى القضاة فى مصر أبى بكر محمد بن أبى الليث وراح الشعراء يمدحونه على ذلك فيقول أبو بكر بن الخبازة:

وبعـد فـإن السنة اليوم أصبحت معـززة حـتى كـأن لـم تُذَلَّـل

تطــول وتسنــطو إذ أقيم منارها وحــطَّ منار الإفك والزور مِنْ عل

وولــى أخو الإبداع فى الدين هاربا إلـــى النار يهْوى مدبراً غير مقبل

شــفى الله مــنهم بالخليفة جعفر خليفـــته ذى السُّــنة المـــتوكل

خلــيفة ربّــى وابــن عــم نبيه وخــير بنى العباس مَنْ منهمُ ولي

وجــامع شــمل الدين بعد تشتت وفــارى رؤوس المارقين بمنصُل

أطـــال لـــنا رب العــباد بقـــاءه ســليماً مــن الأهــوال غير مبدَّل

وبـــــــوّأه بالنصر للدين جنـــة يجاور فى روضاتهـــا خير مرسل

وراح كثــيرون من شعراء السنة يمدحونه ويشيدون به لرفعه هذه المحنة عنهم .

وقــد شاع هذا المذهب واعتنقه كثيرون فى العصر العباسى الأول علــى اخــتلاف طــبقاتهم حــتى من الخلفاء أمثال: المأمون والمعتصـــم والواثــق وفى أيامهم كثر عدد المعتنقين لرأى الاعتزال لأنهم شجعوا عليه بل كانوا يحملون الناس حملاً على اعتناقه .

وقــد انقســمت مدرسة المعتزلة إلى فرعين كبيرين : فرع البصــرة وكـــان أسبق فى الوجود وفرع بغداد . ومن أشهر رجال المعــتزلة : واصــل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف والـــنظام والجاحظ ، وبشر بن المعتمر وأبو موسى المُرْدار وجعفر ابن مُبّشر وجعفر بن حرب ويسميان : الجعفران وثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبى دؤاد وغيرهم .

وقد كان لرأى المعتزلة ومذهبهم أثر كبير فى الشعر العباسى

والكتابة حيث راح شعراء المعتزلة وأدباؤهم ينظمون الأشعار والأدب فى مذهبهم وآرائهم وراح الشعراء الآخرون يردون عليهم ويفندون آراءهم ويحمسون الخلفاء والوزراء لمحاربة هذا المذهب .

ومن شعراء الاعتزال فى هذا العصر : العتابى وبشر بن المعتمر ، والنظام وابن الرومى وغيرهم من الشعراء الذين شاركوا فى مجال الشعر فى العصر العباسى فضلاً عن الجاحظ رأس شيوخ الكتاب من المعتزلة ويقابله ابن قتيبة خطيب السنة وإمامهم فى وقته.

ولقد كان لشعراء المعتزلة وجهتان فى مشاركتهم فى مجال الشعر :

وجهة عامة حيث راحوا ينظمون أشعارهم فى أغراض الشعر العباسى وموضوعاته ووجهة خاصة بهم حيث راحوا ينظمون للاحتجاج لآرائهم ومعتقداتهم وما يتصل بها فضلاً عن هجومهم على خصومهم من أصحاب المذاهب الأخرى والنحل المختلفة ، وكان صفوان الأنصارى أقدم شعرائهم فى العصر العباسى وكثيراً ماراح يتصدى لبشار بن برد يهجوه ويمدح أتباع الاعتزال ، يقول فى واصل بن عطاء وأتباعه :

تلقّب بالغزّال [١] واحدُ عصره ... فمن لليتامى والقبيل المكاثر

ومن لحِرورُىّ وآخر رافضٍ ... وآخر مرجئ وآخر جائر

---

(١) لقب واصل بن عطاء بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين حيث كان يجلس ليرى المتعففات من النساء ليعطيهن صدقته.

وأمــرِ بمعــروفٍ وإنكــارِ لمنكرِ   وتحصــين ديــن الله من كل كافر
له خلف شعب الصّين فى كل ثُغْرة   إلى سُوسها الأقصى وخلْفَ البرابر
رجــالٌ دعــاة لا يفــلُّ عزيمهمْ   تهكُّــمُ جــبَّار ولا كــيْدُ ماكــرِ
وأوتاد أرض الله فى كل بلـــدة   وموضع فتياها وعلـــم التشاجُرِ

ثــم نــراه يهاجم بشاراً ويدحض رأيه فى تفضيله النار على الطيــن كما قال إبليس فى رفضه أمر ربه بالسجود لآدم وراح يفند مــزاعمه فى الرجعة والتناسخ وتكفيره للأمة وراح يوازن بين النار والأرض وأن الأرض أفضــل منها لأنها تحمل الجواهر واللآلئ من الذهــب والفضة والياقوت والأحجار الكريمة وتضم الأماكن المقدسة من مقام إبراهيم والركن والصفا والمروة والحجر الأسود وغير ذلك فيقول :

زعمــت بــأن النار أكرم عنصراً   وفى الأرض تحيا بالحجارة والزَّنْد
وتخلــق فــى أرحامها وأرومها   أعاجيــب لا تحصى بخطٍ ولا عقْد
وفــى القعْر من لُجّ البحار منافعٌ   من اللؤلؤ المكنون والعنبر الورْدِ
وفــى قلــل الأجــبال خلف مقطَّم   زبرجدُ أملاك الورى ساعة الحَشْدِ
وكــل يواقيــت الأنــام وحلْــيها   من الأرض والحجارة فاخرة المجد
وفيها مقام الخلِّ والركنُ والصفا   ومُستلم الحُجاج مـــن جنة الخُلد

وهــناك أشــعار كثــيرة فى هذا المجال والتى راح شعراء المعــتزلة ينظمونها إما تأييداً أو شرحاً لمذهبهم وإما حجاجاً وجدالاً

وهجاءً لخصومهم بجانب ما نظموه من أشعار أخرى عامة وشاركوا بها فى نهضة الشعر العباسى وصبغت بصبغة مذهبهم وآرائهم كقول النظام : يصف الخمر :

مازلت آخذ روح الزّقِّ فــى لُطُف وأسـتبيحُ دمــاً مــن غير مجروح
حتى أنثنيت ولى روحان فى جسدى والزقُّ مُطــــرحٌ جسمٌ بـــلا روح

حيث يظهر تأثره بعقله الاعتزالى الذى يرى أن الروح جسم لطيف مشابك للجسم .

***

الشيعة ومذهبهم وأثرهم فى الشعر العباسى : -

يــرى الشــيعة أن علــيا بن أبى طالب هو الخليفة الشرعى للمســلمين بعــد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وأن أبا بكر وعمر وعــثمان والأمويــين والعباســيين غاصبون للخلافة من علىٍّ وبنيه ويجــب علــى الشــيعة رد الحــق والعمل سراً وجهراً حتى يتولى العلويون الخلافة فهم أهل الحق وأصحاب الأمر .

وقد نبتت فرقة الشيعة من بعض الصحابة الذين كانوا يحبون علــيا ويرونه أحق بالخلافة ومن أشهرهم : سلمان الفارسى وأبو ذر الغفارى والمقداد بن الأسود .

ثم اتسع نطاق التشيع وضم كثيراً من الطبقات ومنهم الموالى -خاصــة مــن الفرس- فضلاً عن أناس اعتنقوه حتى يهدموا الإسلام وينــتقموا منه فأظهروا التشيع وغالوا فيه وأخفوا ما يريدونه من كيد وحقد .

وقــد اختلفت وتعددت طوائف الشيعة تبعاً للإمام الذى يرونه فضلاً عن الاختلاف فى المبادئ والعقائد الشيعية فنرى منهم المغالى الذى يقدس الأئمة ويرفعهم إلى درجة النبوة ويكفر من خالف عليا ، ومــنهم المعــتدل الــذى رأى الأئمة فى على وبنيه ولكنه خطأ من خالفهم ولم يكفرهم .

وقد تفرقت فرقة الشيعة إلى فرق شتى وانقضى بعضها وأهم فرقها: الإمامية والزيدية ، وانقسمت الإمامية إلى :

الإثـــنا عشـــرية : الـــتى تقول باثنى عشر إماماً من على ثم الحســـن ثم الحسين إلى محمد المهدى وهو الثانى عشر الذى اختفى عام ٢٦٠هـ وسيعود فى آخر الزمان.

والإســـماعيلية : الذيـــن يقولـــون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصـــادق وهـــو الإمام السادس إلى إسماعيل ابنه لاموسى الكاظم ثم قالوا لقد جاء بعد إسماعيل أئمة مستورون حتى جاء عبيد الله المهدى رأس الدولـــة الفاطمـــية،كمـــا يطلق عليهم : الباطنية لعقيدة الظاهر والباطن .

وأهم مسألة يدور عليها مذهب الإمامية : مسألة الإمام فهى عصب مذهبهم ومركز عقيدتهم وتفرعت عنها أكثر عقائدهم ، حيث يرون الإمام على صلة روحية بالله مثلما كان الأنبياء والرسل .

ويقولـــون : إن الرســـول أو النـــبى ينزل عليه جبريل فيراه ويســـمع كلامـــه وينزل عليه الوحى أو الرؤيا فى المنام والإمام هو الـــذى يسمع الكلام ولا يرى الشخص " فكأنه يوحى إليه من قبل الله وإن اختلفت طريقة الوحى عنها عند النبى والرسول ...

وعـــندهم : أن الإمام حجة الله على عباده ولا يجوز أن تبقى الأرض بـــلا إمـــام وأن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان فلا يصح الإيمان بدون معرفة الإمام والإيمان به ...

والأئمـــة : هم أركان الأرض ، والإمامة: هى منزلة الأنبياء وإرث الأوصـــياء والإمامـــة خلافـــة الله ورسوله ووصيه وميراث

الحســـن والحســـين وهى زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعـــز المؤمنيـــن ، وبالإمامة تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهـــاد ، والإمـــام يحل حلال الله ويحرم حرامه وهو المطهر من الذنـــوب والمـــبرأ من العيوب والمخصوص بالعلم وهو نظام الدين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبوار الكافرين ، والإمام واحد دهره لا يدانـــيه أحـــد ولا يعادله عالم ولا يوجد منه بدل ولا مثيل له ولا نظـــير، مخصـــوص بالفضل كله من غير طلب منه ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب ".

ويرون : أن أعمال الخلق ستعرض على النبى صلى الله عليه وسـلم والأئمـــة لقولـــــه تعـــالى : ﴿ **فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ حيث أولوا "المؤمنين " بأنهم الأئمة ...

ويـــرون أن الإمـــام السابق يؤدى إلى الإمام الذى يليه الكتب والعلـــم والســـلاح ولم يفعل الإمام شيئا إلا بعهد الله و أمر منه ولا يجرؤ أحد أن يطعن فى الإمام فى فم ولا بطن ولا فرج ، والإمام إذا مات لا يغسله إلا إمام ...

ويقولـــون : إذا أراد الله أن يخلق الإمام من الإمام أرسل ملكا فـــأخذ شـــربة من تحت العرش وأعطاها للإمام فشربها فيمكث فى الرحم أربعين يوماً لا يسمع الكلام فإذا وضعته أمه أرسل الله الملك فكتـــب على عضده الأيمن : وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته ...

ويـــرون أن الملائكـــة تدخـــل بيوت الأئمة وتأتيهم بالأخبار والأرض كلهـــا للإمـــام، فالديـــن عندهم طاعة الإمام ولو عصى الإنسان ربه وخالف الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

والإمام عندهم فوق أن يحكم عليه وهو فوق سائر الناس ولا يســـأل عما يفعل وهو مقياس الخير والشر فما عمله أو أمر به فهو خـــير ومـــا نهى عنه فهو شر وهو السلطة الروحية الكبرى فجميع أركان الإسلام لا تنفع إلا بالإيمان به وليس من حق أحد أن يعترض علـــيه أو يثور في وجهه ، وحكمه حكم ديني معصوم وأنه قبس من نور الله .. الخ .

ومـــن أهـــم عقائدهم : العصمة والتقية والمهدية والرجعة ، وكلهـــا عقائد خارجة عن الإسلام ولا تمد له بصلة لا من قريب ولا من بعيد .

وقـــد ذهب الشيعة إلى رفض كل تعاليم السنة وعقائدهم التي تخالف عقائدهم رفضاً تاماً ووضعوا بدلاً عنه أصولاً وفروعاً تتمشى مع عقيدتهم الشيعية ، فضلاً عن أنهم لم يأخذوا رأياً أو حديثاً إلا عن إمـــام مـــن أئمة الشيعة وعالم شيعي وراوٍ شيعي ، فضلاً عن أنهم أنكروا الإجماع والقياس لأن الدين عندهم مصدره الإمام .

وأهـــم ما خالف فيه الشيعة – بخلاف ما تقدم – أهل السنة " زواج المـــتعة وهو : أن يتعاقد الرجل مع المرأة أن يتزوج بها بأجر معين وإلى أجل مسمى .

وزواج المتعة لا توارث فيه ولا يشترط فيه الشهود والإعلان ولا يحتاج إلى طلاق بل ينتهى بانتهاء العقد المحدد ، ولا حد لعدد النساء المتمتع بهن وأكثر ما يستعملونه فى الأسفار بل كان بعض الأئمة يعتبرونها قربة فيروون عن الصادق قوله " **ليس منا من لم يستحل متعتنا** "

كما حرم الشيعة الزواج من اليهودية والنصرانية خلافاً لأهل السنة ، ويرون إرث الأنبياء ،ينكرون العول فى الإرث ويقدمون بعض الورثة على بعض فيقدمون : الزوجة والأبوين على البنتين فى أخذ نصيبهم ويقدمون القرابة على العصبة ويقدمون ابن العم الشقيق على العم لأب حتى يثبتوا تقدم على فى إرث النبى صلى الله عليه وسلم على العباس ، ولا يورثون النساء من الأرض والعقار بل يورثوهن من فروع الأموال ، كما يختلفون فى صيغة الأذان فيزيدون فيه : حى على خير العمل " بعد حى على الفلاح.وفى المسح على الرجلين فى الوضوء دون غسلهما .

وفرقة الزيدية : أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وقد جعلوا الإمامة فى أولاد فاطمة ولم يجيزوا ثبوتها فى غير أولاد فاطمة مثل : محمد بن الحنفية وقالوا : إن كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج للإمامة يكون إماماً سواء كان من ولد الحسن أو من ولد الحسين .

وتأثر زيد بن على بمذهب الاعتزال وصار أتباعه كلهم

معتزلة وأجاز إمامة المفضول مع قيام الأفضل وأجاز إمامة أبى بكر وعمـــر ولم يخطئهما أو يكفرهما ولما علمت شيعة الكوفة برأيه هذا وأنـــه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه وسموا " رافضة" . والزيدية فى تعالـــيمهم ومـــبادئهم أقـــرب إلى أهل السنة فلا يعتقدون بالتقية ولا بالعصمة ولا باختفاء الأئمة .

وقد لاقى الشيعة كثيراً من الأهوال والمصائب منذ عصر بنى أمـــية وكانـــت لهم ثورات عديدة على خلفاء بنى أمية وبنى العباس وبســـببها كـــثرت آلامهم ومآسيهم ، فقد مات الحسن مسموماً وقتل الحســـين فى كربلاء بعد مقتل أبيهما من قبل ، وفى عهد عبد الملك ابـــن مروان كان الحجاج الذى عسف بالناس وخاصة بالشيعة ، وقُتل زيد بن على ويحى بن زيد وسُمَّ ابن الحنفية حيث أرسل إليه سليمان ابن عبد الملك من سمه .

ولـــم يكـــن العباسيون أقل تنكيلاً وعذاباً للشيعة من بنى أمية فاحتدم القتال بينهما ولاقى آل البيت ألوانا وصنوفاً من العذاب والقتل والحـــرق ، فقُـــتل محمد بن عبد الله وحمل رأسه المنصور كما قُتل أخـــوه إبراهـــيم بن عبد الله فى عهد المنصور وقبض على كثير من أفراد البيت العلوى وحبسهم حتى ماتوا .

وقُتل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبى طالـــب فى عهد الهادى ثم ولى هارون الرشيد فخرج عليه يحيى بن عـــبد الله بـــن حسن أخو النفس الزكية فقتله فى محبسه ، ثم توالت

الثورات من قبل العلويين والقتل والمآسى من قبل العباسيين وكما يقول ابن الرومى :

لكل أوانٍ للنبى محمد قتيلٌ زكىٌ بالدماء مضرج

ومن أشهر ما فعل بحق الشيعة ما قام به الخليفة المتوكل من هدم قبر الحسين حتى يوقف زيارة الشيعة له وهدم ما حوله من دور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه".

وكان إمام الإمامية فى عهده أبو الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب وقد سعى به إلى المتوكل من المدينة إلى سامراء التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وظل بها مقيماً نحو عشرين سنة ومات بها، وقد حمل إلى المتوكل فى جوف الليل والمتوكل يشرب فأجلسه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدنى شعراً فأنشده:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم فأودعوا حفراً يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ماقبروا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا

وطالما كنزوا الأموال وادخروا   فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة   وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ورده مكرماً إلى منزله؟

وظلت الثورات بعد ذلك من آل البيت فى عصور الخلفاء العباسيين الذين راحوا يقابلونها بالشدة والفتك .

وقد كان للعقائد الشيعية وللأحداث التى حدثت لأئمة الشيعة أثر كبير فى الشعر العباسى ، حيث راح شعراء الشيعة الذين كثروا فى هذا العصر يقفون إلى جانب مذهبهم وأئمتهم خاصة الشيعة الزيدية التى رفضت مبدأ التقية وجاهرت بعصيانها ووقفت أمام العباسيين حينما عرف الزيديون حقيقة الأمر وأنهم قد أبعدوا عن الخلافة.بينما وقفت الشيعة الكيسانية فى صفوف العباسيين هم وشعراؤهم مادحين مثنين مثل السيد الحميرى ، أما الشيعة الإمامية وشعراؤهم فقد راحوا ينافقون العباسيين مادحين مظهرين غير مايبطنون انطلاقاً من مبدأ التقية وراح شعراؤهم يمدحونهم مثلما هو معروف عند منصور النمرى .

وقد انعكست العقائد الشيعية والأحداث التى حدثت للأئمة من الشيعة والثورات التى قاموا بها انعكس كل ذلك على الشعر العباسى، حيث راح شعراء الشيعة يتحدثون عن حقهم الذى اغتصبه العباسيون وأنهم الأحق بهذا الحق وراحوا يمدحون الأئمة من آل

البيــت ويهجــون أعداءهم من العباسيين وغيرهم كما راحوا يرثون القــتلى من آل البيت ويصورون ما حدث لهم من كوارث ومصائب فى شعر حزين باك يذيب القلوب ويذرف الدموع وينظمون الأشعار تأييداً للأئمة وأحقيتهم .

ومن ذلك قول " سديف" يخاطب النفس الزكية " محمد بن عبد الله بن الحسن وكان يعتنق الزيدية :

إنــا لــنأمل أن تــرتدّ ألفتــنا ... بعــد التــباعد والشــحناء والأحن

وتنقضــى دولــة أحكــامُ قادتها ... فيــنا كاحكــام قــوم عابدى وثن

فانهض ببيعتكم ننهض بطاعتنــا ... إن الخلافة فيكـــم يا بنى حسن

وكان من شعراء الزيدية : هارون بن سعد العجلى وبشر بن المعــنمر وغالــب بن عثمان الهمدانى وله مراث فى النفس الزكية وأخيه هارون تقطر دماً وبقدر ما كان يكثر الثائرون والمقتولون من أئمة الزيدية بقدر ما كان يكثر شعراؤهم فى رثائهم والبكاء عليهم .

أما الشيعة الإمامية وشعراؤهم فقد التزموا بمبدأ التقية وربما كان الشاعر" دعبل الخزاعى" هو الشاعر الإمامى الوحيد الذى جاهر بعدائــه للخلفاء العباسيين وراح يهجوهم ويمدح الأئمة من آل البيت ويثبــت حقهم فى خلافة المسلمين وأن العباسيين غاصبون لها.ومن شعره يرثى آل البيت فى قصيدته المشهورة :

مــدارس آيــات خلت من تلاوة ... ومــنزلُ وحْــى مقفر العرصات[1]

---

[1] العرصات : ساحات الدار.

لآل رســول الله بالخَيْف من مِنى — وبالركــنِ والــتعريف والجمــرات
ديار عليٍ والحسين وجعْفــــر — وحمــزة والسجادِ ذى الثَّفِنات [١]

إلى أن يقول فيهم :

لهــم كــل حيــن نومة بمضاجع — لهــم فى نواحى الأرض مُخْتَلفاتِ
وقــد كــان منهم بالحجاز وأهلها — مغاويــرُ يُخْتارون فى السَّروات [٢]
مَلاَمــك فــى أهــل النبى فإنهم — أحــبَّائى ماعاشــوا وأهل ثقاتى [٣]
فــيارب زدنــى من يقينى بصيرةً — وزدْ حــبَّهمْ يــارب فى حسناتى
بنفســى أنــتم مــن كهول وفتية — لفــكِّ عُــناة أو لحمــل ديــات [٤]
أُحــبُّ قصىَّ الرُحْم مِنْ أجل حبكم — وأهجــر فــيكم أُســرتى وبــناتى
أرى فيــئهم فــى غيرهم متقسماً — وأيديهــمُ مــن فيــئهمْ صَفرات [٥]
بــنات زيادٍ فى القصور مصونة — وآل رســول الله فــى الفلــوات
فلولا الذى أرْجوه فى اليومِ أو غدٍ — لَقُطّع قلبــى إثْرهـــم حسراتِ

ومــن شعراء الإمامية فى العصر العباسى الأول : القاسم بن يوسف وله أشعار كثيرة شيعية فى مديح بنى هاشم وبيان فضل على ابن أبى طالب وفى رثاء الحسين ملوحاً بيده فى وجه أبى بكر وعمر

---

(١) السّـجاد وذو الثفــنات : على بن الحسين لأن طول السجود أثر فى ثفناته ، والثفنات : الركبة ومجتمع الساق والفخذ .

(٢) السروات : السادات .

(٣) ملامك : دع لومك على .

(٤) عناة : أسرى . جمع : عان .

(٥) الفيئ : الخراج والغنيمة .

وخصـــوم الإمامـــية مشـــيراً إلى مهديهم الذى سيعود ويأخذ بثأرهم فيقول:

إنـــــى لأرجـــــو أن تـــــنالهم   مـــنى يـــد تشـــفى جَـــوى الصدر
بالقائم المهدىّ إن عاجـــــــلا   أو آجـــــلاً إن مـــدّ فى عمرى

ومـــن شعراء الإمامية : محمد بن وهب وهو غال فى تشيعه وإماميـــته ، ومـــن أبـــرز شـــعراء الشيعة فى هذا العصر : السيد الحمـــيرى ومنصور النمرى ودعبل الخزاعى وديك الجن ومحمد بن صالح العلوى والحمّانى العلوى والمفجَّع البصرى ، ومحمد بن على ابـــن عبد الله أحد أحفاد العباس بن علـــى بـــن أبـــــى طالب الذى يقول :

وجدّى وزير المصطفى وابن عمه   علـــىّ شهابُ الدرب فى كل ملحم
وأوّل مـــن صـــلَّى ووحَّـــد ربَّـــهُ   وأفضـــل زوَّار الحطـــيم وزمـــزم
وصـــاحب يوم الدوح إذْ قام أحمدٌ   فـــنادى يـــرفع الصوت لا بتهْمهُم
جعلتك منـــــــىَّ يا علـــىّ بمنزلٍ   كهارون من موسى النَّجِّـــى المُكلمَّ

وقـــد كثر فى العصر العباسى بين شعراء الشيعة الحديث عن علـــى وفضائله حتى عند الشعراء من غير الشيعة إرضاء للمأمون كما هو عند أبى تمام وغيره .

وفـــى عصـــر المستعين ثارت ثائرة شعراء الشيعة بعد مقتل

يحـــيى بن عمر الطالبى الذى خرج على المستعين وقاتله محمد بن عبد الله بن طاهر وهزمه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد وضج الناس لمقـــتله وصلب رأسه ونصب له الشيعة مأتماً كبيراً ناح فيه الشعراء ورثـــاه ابن الرومى بقصيدة طويلة راح يندبه فيها ندباً حاراً مصوراً حـــزنه علـــيه وراح يصـــرخ من أعماقه وتناول العباسيين بالهجاء واصـــفاً إياهم بالظلم والطغيان هم وولاتهم ومنذراً برجوع الحق إلى نصابه ومتوعداً بخروج جيش يأخذ الثأر من قتلته وخصومه ومنها :

سـلامٌ وريحــانٌ وروح ورحمة　　علـيك وممـدود من الظل سَجْسجُ

ويـا أسـفى أن لا يـرد تحـيةً　　سـوى أرج من طيب نشْرِك يأرَجُ

ألا إنمـا ناح الحمائم بغدمـا　　ثويتَ وكَانــتْ قبلُ ذلك تهْزَجُ

وهكـذا تلـون الشـعر السياسى فى العصر العباسى الأول بالخلاف المذهبى بين الشيعة وبين العباسيين وراح الطرفان يتحاجان فـيما بيـنهم حول أحقية الخلافة ومن الأحق بها ، فيرى العباسيون وشـعراؤهم بأنهم الأحق بها لأنهم ورثة العباس عم النبى صلى الله علـيه وسلم والعم يحجب ابن العم فى الميراث (وهو على بن أبى طالب) ، بينما يرى العلويون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لأنهم ورثـوا علـيا بن أبى طالب وهو وإن كان ابن عم النبى صلى الله علـيه وسـلم إلا أن أولاده من فاطمة الزهراء بنت النبى صلى الله

عليه وسلم والبنت عندهم ترث التركة كلها إن لم يكن لها أخ ذكر وذلك كالحسن والحسين وأولادهما والبنت أقرب من العم .

حتى هؤلاء الشيعة الذين ينتمون إلى آل البيت من غير أولاد فاطمة الزهراء رأوا أنهم أحق بالخلافة لأنهم ورثة على بن أبى طالب ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم .

وراح شعراء كل مذهب يدافع عن أحقيته فى الخلافة صابغاً شعره بهذا الخلاف المذهبى بين الشيعة والعباسيين ، وكان أشهر شعراء الشيعة فى هذا العصر :السيد الحميرى[١] الشاعر الشيعى الذى بلغ حداً مسرفاً فى مغالاته وتشيعه حيث راح يسب الصحابة فى شعره : أبا بكر وعمر وعثمان والسيدة عائشة وطلحة والزبير وأفرط فى سبهم وقذفهم وراح يمدح بنى هاشم ويهجو خصومهم كما راح يرثى آل البيت مصوراً ما حدث لهم من كوارث ونكبات خاصة الحسين بن على وما حدث له فى كربلاء وقد راح يركز فى شعره لآل البيت على فضائل على بن أبى طالب حتى الفضائل التى ادعاها الشيعة ولم تكن حقيقيه كقوله :

أقسمُ بالله وآلائه　　والمرءُ عمَّا قال مَسئُولُ

---

(١) شاعر مخضرم أدرك العصرين : الأموى العباسى من سنة ١٠٥ هـ إلى سنة ١٧٣.

إنَّ عليَّ بـن أبـى طا لب عَلَى التُّقـى والبِّر مجبول

وقوله فى حادثة غدير[١] خم وهى ماتزعمه الشيعة :

أبلـغ وإلا لـم تكـن مُـبلغا والله مـنهم عاصـم يَمـنعُ
فعـندها قـام النـبى الـذى كـان بمـا يأمـره يَصْـدَعُ
يخْطُـبُ مـأموراً وفـى كفّه كـفُّ علـىِّ نورُهـا يلمـعُ
رافعهـا أكـرمْ بكـفّ الذى يـرفعُ والكـف الـتى تُرفعُ
من كنت مـولاه فهذا لـه مَولى فلم يرضوا ولم يقنعوا

وقال يرثى الحسين :

أمْـرُر علـى جدث الحُسيـ ـن فقـل لأعظمه الزكيَّةْ
آأعظُمـاً لا زِلـت مِـنْ وطفـاء سـاكبةٍ رَويَّـة
وإذا مـررت بقـبره فـأطِلْ بـه وَقْـفَ المطـيَّةْ
وابْـك المُطهَّـر للمطهَّـر والمُطهـرة النَّقِّـية
كبكـاء مُعْولـةٍ أتت يوماً لواحدهـا منيـة

بـل لقد بلغ العداء والكراهية لعمر بن الخطاب من قبل السيد الحمـيرى أنـه راح يحرض الخليفة المهدى أن يحرم آل عمر من

(١) غديرخم : بين مكة والمدينة.

الخطاب من العطاء ويصفهم بأنهم شر الخلق أولاً وآخراً فيقول :

قـل لابـن عباس سَمِيِّ محمد ... لا تُعطيـنَّ بـنى عـدىٍّ درْهما

احْـرِمْ بـنى تيْم بن مُرَّةَ إنهم ... شـرُّ الـبرية آخـراً ومُقدَّمـا

إن تعطهـمْ لا يشكروا لك نعمة ... ويكافـئوك بـأنْ تُـذمَّ وتُشْـتما

ولئنْ منعْتهـم لقد بدأوكـمُ ... بالمنع إذْ ملكـوا وكانوا أظْلما

ولقـد جـار الشاعر جوراً شنيعاً وغابت عنه الحقيقة وأنكر الشـمس وهى ساطعة فى كبد السماء فنيس هناك من المسلمين عامة مـن هـو أعـدل من عمر بن الخطاب حتى مع غير المسلمين وقد أصبح عمر بعد له رمزاً للعدل ومثالاً يجب أن يحتذى رضى الله عنه .

وبعد السيد الحميرى جاء شعراء آخرون وساروا على نهجه فـى مغالاتـه وغلوه فى تشيعه وشعره الذى يؤيد عقيدته مادحا آل البيت راثيا قتلاهم وهاجياً خصومهم مثبتاً أحقية العلويين فى الخلافة كدعبل الخزاعى وقد مرت أمثلة من شعره .

وعلـى الطرف الآخر وقف جمع من الشعراء يؤيدون وجهة نظـر العباسـيين فـى الخلافة ومفندين مزاعم العلويين فيها بالأدلة والبراهين الساطعة من الكتاب والسنة والعقل ، ومن هذا القبيل قول أحدهم يؤيد الوجهة العباسية فى مدحه للخليفة الرشيد :

يا ابن الأئمة من بعد النبى وابـــ	ـــن الأوصياء أقرَّ الناس أو دَفعوا
إنّ الخلافـــة كانـــت إرْث والدكم	مـــن دون تـــيمْ وعفـــو الله مُتسعُ
ومـــا لآل علـــىٍّ فـــى إمـــارتكم	ومـــا لهـــم أبـــداً فـــى إرثكم طمع
العمُّ أولى من ابن العمِّ فاستمعوا	قول النصيحـــــة إنّ الحقَّ مُسْتمعُ

وكـــان أبـــان اللاحقى ومروان بن أبى حفصة من أكبر دعاة العباســيين فيى الشعر ، ومن قول مروان بن أبى حفصة فى مدحه للمهدى :

يـــا ابن الذى ورث النبى محمداً	دون الأقـــارب مـــن ذوى الأرحام
الوحـــى بيـــن بنى البنات وبينكم	قطـــع الخصـــام فلات حين خصام
مـــا للنســـاء مع الرجال فريضة	نزلـــت بذلـــك ســـورة الأنعـــام
ألغـــى ســـهامهم الكتابُ فحاولوا	أن يشـــرعوا فـــيها بغير سهام[١]
أنى يكون – وليس ذاك بكائن –	لبنى البنات وراثـــــة الأعمـــــام

وكان البيت الأخير من أشد الأبيات علىٰ الشيعة وغاظهم جداً حـــتى لعنوا مروان بن أبى حفصة واغتالوه بعد ذلك من أجله وردوا عليه بقولهم :

(١) يشرعوا فيها بغير سهام : ينالونها من غير حق أو نصيب مفروض.

لِـمَ لا يكـون – وإنّ ذاك لكائن لبـنى البـنات وراثـة الأعمام[١]
للبنـت نصـفٌ كـاملٌ من ماله والعـمُّ مـتروك بغـير سـهام
ما للطليـق وللتراث وإنمـا صلى الطليق مخافة الصمصام [٢]

وهـناك الكثـير والكثير من الأشعار التى راحت تثبت أحقية الخلافـة لأحـد الطرفين المتصارعين عليها ، وما نتج عن ذلك من حـروب وثـورات وقتال وقتل ورثاء للقتلى وذلك بما يدل على هذا الأثـر الكبير الذى كان للشيعة ولشعرائهم فى الشعر العباسى -- بل الأدب العباسـى ، وظـل هذا النزاع الشعرى والأدبى بين الطرفين ودام بـدوام النزاع بين الطرفين : العباسى والعلوى طوال العصور الإسلامية وفى كل دولة من الدول .

" ولئن شقيت السياسة بهذا النوع فقد سعد الأدب ولئن أجرى الدماء وأزهق الأرواح وخرب الممالك ، فقد حرك العواطف وأسال الأفكار وأطلق للخيال العنان ".

" وإذا كان المعتزلة بمبادئهم ومذهبهم قد أغنوا الشعر والأدب مـن حيـث المعانى والأفكار وقوة العقل وتوليد المعانى والنظر إلى

---

(١) بنو البنات : بنوا فاطمة . وراثة الأعمام : اى وراثة كوارثة الأعمام .

(٢) ويـريد بالطلـيق : العباس بن عبد المطلب ، حيث كان مع المشركين يوم بدر ثم أسر فافتدى نفسه .

الكـــون والطبيعة ودلالتها على خالقها وغاصوا على المعانى غوصاً ونقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق ، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات مسهبة ، ووجهوا الذهن وجهات لم تكن قبلهم – حيـــث كان النثر قبلهم خطباً ترصف فيه الجمل رصفاً أو جملاً حكمـــية أو أمـــثالاً ســـائرة فجعلوا الأدب كتبا كل كتاب يدور حول موضوع اجتماعى أو أدبى أو رسائل وكان الجاحظ مظهر المعتزلة المحيط بأدبهم الناشر لآرائهم المحلى لأفكارهم يزيد عليها من أفكاره ويحلـــيها بتعبـــيراته - فقدجاء الشيعة أيضاً فأغنوا الأدب من الناحية السياسية والعاطفية ، فظلوا يقولون فى الحق وطلبه والإرث وغصبه ثم يبكون على حق ضاع ودمٍ أريق وحرمات انتهكت وبيوت دمرت وجثـــث صلبت وذريت ، فكان لنا من الأدبين جميعاً ، فكر وعاطفة وعقل وقلب وكلاهما لابد منه فى الأدب ".

***

الخوارج ومذهبهم وأثرهم فى الشعر العباسى :

كـــان الخـوارج فى بداية أمرهم وقبل أن يكوّنوا حزباً سياسياً خاصا بهم – كانوا من أنصار على بن أبى طالب ولكنهم انشقوا عنه بعـــد قبوـــله التحكيم فى موقعة صفين وراحوا يكفرون عليا وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل وكل من رضى بالتحكيم وكفروا معاوية وقومـــه مـــن الأمويين.وقالوا بوجوب الخروج على كل ظالم جائر جهـــاراً . ويرون : عبد الرحمن بن ملجم الذى قتل عليا من أفضل الخلق ، فيقول أحدهم وهو عمران بن حطان فيه :

يـــا ضربة من منيب ما أراد بها   إلاّ ليـــبلغ عـــند العـــرش رضوانا
إنّى لأذكره يومـــــــاً فأحسبـــــه   أو فى البريـــــــة عند الله ميزانا

فبيـــنما الشـــيعة يقدســـون علياً يكفره الخوارج وبينما الشيعة يقولون بالتقية فالخوارج يرفضونها ويجاهرون بالحق عياناً من غير موارية ، والخوارج يخالفون ذلك أيضاً : المرجئة التى اتخذت الحياد والسلم طريقاً لها .

والخـــوارج يكفرون مرتكب الكبيرة بينما المعتزلة لا يعدونه كافراً أو مؤمناً ، والخوارج يتمسكون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالقوة تمسكاً أشد من المعتزلة .

وقـــد انقسم الخوارج إلى فرق عديدة بلغت نحو عشرين فرقة منهم : الإباضية والأزارقة والصّفْرية والعجاردة وغيرهم.

ونظـــرتهم فى الخلافة تختلف عن باقى الفرق الخرى : حيث

يعدونها من المصالح العامة وأن أصلح الناس لها أحق بها سواء كان قرشـيا أو غير قرشى عربياً أو غير عربى وأن الإمام الذى تمت له البيعة ثم ظلم وجار أو نهج نهجا لا يتفق مع مصالح المسلمين وجب عزله وإلا وجب قتله .

وهـذه النظرة تختلف عن رأى الشيعة والأمويين والعباسيين فى نظرتهم للخلافة الذين قالوا بنظام الوراثة .

ويـرى الخوارج أن كلا من الأمويين والعباسيين لا يصلحون للخلافـة لأنهـم لم يستوفوا شروطها ويجب الخروج عليهم وقتالهم ومـن أجـل ذلك راح الخوارج يجاهرون بخروجهم على الأمويين ويحـاربونهم وكـان لهـم أثـر كبير فى ضعفهم وإسقاط دولتهم.ثم اسـتمروا فـى حروبهم وخروجهم على العباسيين كما حدث فى أيام السـفاح فـثاروا فى عُمان بقيادة الجُلنْدى وأرسل إليهم السفاح جيشاً بقـيادة : خـازم بن خزيمة وقاتلهم قتالا عنيفا وكانت الحرب سجالاً بيـن الطرفيـن ثـم هـزمهم ابن خزيمة وقتلهم وقتل معهم قائدهم الجلـندى وكان عدد القتلى أكثر من عشرة آلاف قتيل وبعث خزيمة رؤوسهم إلى السفاح سنة ١٣٤ هـ .

ثـم ثـاروا فى عهد المنصور بقيادة : مُلبَّدبن حَرملَة فأرسل إلـيهم يـزيد بن حاتم المهلبى وهزمهم سنة ١٣٨ هـ ، ثم ثاروا على المنصـور فى تونس وما جاورها فهزمهم ، وفى عهد المهدى أيضاً ثـاروا علـيه مـرات عدة كما ثاروا فى عهد الرشيد سنة ١٧١ هـ

وقاتلهم وهزمهم ثم خرجوا عليه سنة ١٧٨ هـ بقيادة الوليد بن طريف الخارجى فى الجزيرة وهزمهم قائد الرشيد : يزيد بن مزْيد الشيبانى وقتل الوليد وأخذ رأسه إلى الرشيد .

ثم ضعف أمر الخوارج بعد هزائمهم المتتالية فى عهد العباسيين وقل شأنهم وخارت قواهم ولم يعد لهم قوة تذكر .

وكما كان للمعتزلة وللشيعة أثر كبير فى الأدب العباسى كذلك كان الخوارج كان لهم أثر كبير فى الشعر العباسى والأدب العباسى بعقائدهم ومذهبهم وثوراتهم المتعددة وبطولاتهم فى ساحات المعارك واستبسالهم حيث كانوا يقاتلون ويخرجون عن عقيدة راسخة لا تتزعزع ولا تلين خاصة وأنهم اشتهروا بالصراحة والجرأة والديمقراطية فى أقوالهم ومبادئهم .

ومن أجل هذا فقد اجتمعت لأدب الخوارج : العاطفة القوية والأداة الصالحة للتعبير عنها .

فأدبهم أدب القوة والتضحية بالغالى والنفيس وأدب التعبير البدوى الذى بعد عن الفلسفة والعمق فى المعانى وتوليدها ، وهو فى ذلك يختلف عن أدب المعتزلة الفلسفى وأدب الشيعة الباكى الحزين الغضبان أحياناً والثائر نادراً .

وإذا كان الشيعة يغضبون لشخص أو مجموعة فإن الخوارج يغضبون للعقيدة وللإسلام بوجه عام ، وقد نجد لهم رثاءاً وبكاءاً ولكنهم فى رثائهم وبكائهم أقوياء يذرفون الدمع ليسفكوا الدم،ويبكون الميت ليتشجع الحيّ،ويؤبنون المفقود ليرسموا المثل الأعلى

للموجـــود، لا يعرفون هزلاً في الأدب ولا يعرفون خمراً ولا مجوناً بــل يعرفون – في أدبهم – كما عرفوا في حياتهم – الجهاد والقتال والقســوة والصــدق والــتقوى والعفاف والزهد في الحياة الدنيا بل بغضها وكراهيتها إلى حد بعيد .

لذلــك جاء أدبهم وشعرهم يصور كل هذه الصفات والمبادئ التي اتصفوا بها ، من ذلك قول عمران بن حطان :

لقــد زاد الحــياة إلــيَّ بغضــاً وحبّــاً للخــروج أبــو بــلال[1]

أحــاذر أنْ أمــوت على فراشي وأرجــو الموت تحت ذرى العوالي

فمن يك همـــــه الدنيا فإنــــي لها والله ربّ البيــت قالــــــــي

والخــوارج حــتى فيغزلهم يمزجون بين الغزل والشجاعة ويوفقون بين حب الموت وحب الحياة ، يقول قَطريُّ بن الفجاءة :

لعمــرك إنــي فــي الحياة لزاهدٌ وفــي العــيش ما لم ألق أم حكيم

مــن الخفرات البيض لم يُر مثلها شــفاءً لــذي بــثّ ولا لســقيم

لعمــرك إنــي يــوم ألطم وجهها علــى نائــبات الدهــر جــدُّ لئيم

ولو شهدتني يوم دولابَ أبصرتْ طعــــان فتى في الحرب غير ذميم

فكــان أدب الخــوارج وشــعرهم صورة صادقة من حياتهم وعقــيدتهم وحروبهم وكان شعرهم كسهامهم وخطبهم كقلوبهم وكان لهــم شعر كثير وخطب كثيرة وأنتجوا نتاجاً وفيراً إلا أنه ضاع ولم يبق منه إلا القليل ، ولو لم يحفظ لنا المبرد في كتابه " الكامل "جزءاً

---

(١) أبو بلال : مرداس بن أدية.

لضـــاع كله كما لم يبق لنا من دواوينهم إلا ديوان" الطّرماح" الشاعر الخـــارجى ، وأكثر ما روى عن شعرهم كان فى العصر الأموى ، ومـــا روى فـــى العصـــر العباسى فقليل وربما كان السبب فى ذلك ضـــعفهم فى العصر العباسى الذى أدى إلى ضعف شعرهم وأدبهم ، ومـــن شـــعر الخوارج فى العصر العباسى قول الفارعة ترثى أخاها الوليد بن طريف فى قصيدتها المشهورة :

بتَلّ نهـــاكى رسْـــم قـــبرٍ كأنه — علـــى جـــبل فـــوق الجبال مُنيف

تضـــمَّن مجـــداً عُدْ ملياً وسؤدداً — وهمّـــة مقـــدام ورأى حصـــيف

فـــيا شجر الخابور مالك مورقاً — كـــأنك لـــم تحزن على ابن طريف

فـــتى لا يحبُّ الزاد إلا من التُقى — ولا المـــال إلاَّ مـــن قـــنا وسيوف

ولا الذخـــرَ إلاّ كُـــل جرداء صلدم — مُعـــاودة للكـــرّ بيـــن صُـــفوف

كـــأنك لـــم تشْـــهدْ هناك ولم تقُمْ — مقامـــاً علـــى الأعداء غير خفيف

فقدنـــاك فِقْـــدانَ الشـــباب وليتنا — فديـــناك ســـن فتيانـــنا بـــألوف

ومازال حتى أزهق الموتُ نفسه — شـــجاً لعـــدوّ أوْ لجـــأ لضـــعيف

ألا يالقومـــي للنوائـــب والـــردى — ولـــلأرض همَّـــتْ بعـــده برجُوف

وللبدر من بين الكواكب إذْ هوى — وللشـــمس لمَّـــا أزْمعـــتْ بكسوف

ولليـــث كـــلّ الليـــث إذ يحملونه — إلـــى حُفـــرة ملْحُـــودة وســـقيف

ألا قـــاتل اللهُ الجُثا حيثُ أضمرتْ — فـــتى كـــان للمعروف غير عَيوُف

فـــإنْ يـــكُ أرْداه يـــزيدُ بن مزْيد — فـــرُبَّ زُحُـــوف لَفّهـــا بـــزُحُوف

عليـــه سلامُ الله وقفاً فإنّنـــــى — أرى الموتَ وقّاعاً بكـــلّ شريف

المرجئة ومذهبهم وأثرهم فى الشعر العباسى :

تقـــوم عقيدة المرجئة على تحديد معنى الإيمان وما يتبع ذلك مـــن فروع ، فقد ذهب بعض المرجئة إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط ولا عبرة بالمظهر وليس الإقرار باللسان ولا الأعمال من صلاة وصوم وزكاة ونحوها جزءاً من الإيمان .

ومـــنهم مـــن كان يرى : أن الإيمان ركنان : تصديق بالقلب وإقـــرار باللســـان ، إلاّ أنهم يتفقون أن العمل ليس ركنا من أركان الإيمـــان وهـــم فـــى ذلك يخالفون خصومهم القائلين بأن الإيمان : تصـــديق بالقلـــب وإقـــرار باللسان وعمل للطاعات ، وأشد خصوم المرجـــئة هم : المعتزلة والخوارج حيث اشترطت الفرقتان : الإتيان بالطاعات واجتناب المعاصى وجعلوا الأعمال جزءاً من الإيمان .

ويرى المرجئة : أن مرتكب الكبيرة مؤمن لأنه مصدق بقلبه، وفاسق لارتكابه الكبيرة ولا يخلد فى النار لأنه مؤمن ، وقالوا بجواز تخلـــف الوعـــيد دون الوعد ، وقالوا : إن الإمامة ليست واجبة وإن كـــان لابـــد مـــنها فإنها صالحة لمن استوفى الأهلية ولو كان غير قرشى.

والمرجـــئة لا يكفرون الطوائف الأخرى المخالفة لهم وعدُّوهم جميعا مؤمنين،ولا يخلد مؤمن فى النار من المؤمنين فإما أن يعفوا الله عن ذنوبهم أو يعذبهم حيناً ثم يدخلهم الجنة .

ومذهب المرجئة مذهب هادئ لا يبعث على الأدب ولا يثير عاطفة أو يلهب مشاعر ولا يثير عقلاً ولا يدعو إلى التفكير طويلاً بل مذهب يهدئ العاطفة ويجعلها فاترة لا تنتج أدباً مما جعل نتاجهم الأدبي ضعيفاً ولم يكن هناك من الشعراء المرجئة فى العصر العباسي إلا شاعران هما : الفضل الرقاشي والعتّابي ومع ذلك لم نجد في شعرهما أثراً للإرجاء واضحاً وإن كان مذهبهم قد أوجد عنصراً مضاداً أو طرفاً آخر يرد عليهم وعلى مذهبهم ، فضلاً عن تأثر بعض الشعراء بمذهبهم خاصة فى باب عفو الله عن ذنوب العاصين حيث يقول المرجئة بجواز عفو الله حتى مع عدم التوبة ، فقد فتحت المرجئة أمام الشعراء باباً واسعاً من أبواب الآداب خاصة أمام هؤلاء الشعراء الماجنين الذين آسرفوا على أنفسهم فى ارتكاب المعاصي وركنوا إلى آراء المرجئة فى عفو الله مثل أبى نواس حيث يقول :

يارب إنْ عظمتْ ذنوبى كثْرةً ... فلقد علمتُ بأنَّ عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ ... فبمن يلوذُ ويستجير المجرمُ
أدعوك ربى كما أمرتَ تَضرعاً ... فإذا رددت يدى فمنْ ذا يرْحم؟
ما لى إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميلُ عفوك ثم أنى مُسْلمُ

فعقيدة الإرجاء واضحة فى الأبيات وإن لم يكن شاعرها من المرجئة .

●●●

النثر فى العصر العباسى الأول :

يعد العصر العباسى الأول عصراً خطيراً فى تطور النثر العربى بنوعيه : الكتابة والخطابة وكان فن النثر أقدر على استيعاب مظاهر الحضارة والثقافة التى عرفها العصر العباسى الأول فقد تحولت إليه الثقافات : الفارسية واليونانية والهندية فضلاً عن الثقافة العربية وكل ثقافات الشعوب التى تكونت منها الدولة العباسية .

وقد تم نقل هذه المعارف والثقافات عن طريق النقل والترجمة والاهتمام بذلك من قبل الخلفاء العباسيين ووزرائهم خاصة البرامكة الذين قاموا بجهد كبير فى سبيل ذلك،فضلاً عما قام به أفراد بمفردهم؛ كابن المقفع وآل نوبخت حيث قاموا بجهد كبير أيضاً فى نقل ثقافة الأمم الأخرى عن طريق الترجمة والنقل .

ونتيجة لامتزاج العناصر التى تكون منها المجتمع العباسى نشأ جيل جديد يجمع بين أفكار كل هذه الأمم وظروفها السياسية والاجتماعية فنشأت فى المجتمع أنواع جديدة من النثر : مثل : النثر العلمى والفلسفى والتاريخى والتوقيعات وتشعب النثر الفنى إلى : رسائل ديوانية وإخوانية وقصص وخطب ومواعظ ومناظرات بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل فى هذا العصر وكان المعتزلة هم أهم طوائف المتناظرين حينئذ .

***

الكتابة الفنية :

ازدهـــرت الكتابة الفنية بنوعيها : الأدبية والعلمية فى العصر العباسى الأول ونشطت حركة الكتابة نشاطاً ملحوظاً وواسعاً ، حيث توافر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدره علـــيهم مـــن أرزاق واسعة وكان من يظهر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رئاسة الديوان الذى يعمل فيه وقد تقبل علـــيه الدنيا فيصبح رئيسا لمجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها فإن لم يصبح وزيراً أصبح واليا لإقليم من الأقاليم مثل : الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين،ومثل : الحســـن بـــن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس،ومثل : عمر بن مهران كاتب "**الخيزران**" أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين "وجعفـــر بـــن محمد بن الأشعث " والى خراسان للرشيد،وطاهر بن الحســـين قائد المأمون،وواليه على خراسان وابنه عبد الله بن طاهر والـــى مصـــر والشـــام والجزيرة ثم والى خراسان،ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور"[١].

وهكـــذا كانت الكتابة من أهم الأشياء التى ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب .

---

(١) ص ٤٦٥ العصر العباسى الأول د. شوقى ضيف .

هذا وقد اكتظت ساحة الكتابة العباسية بعشرات بل بمئات من الكـتاب فـى هـذا العصر ، فضلاً عما مضى ذكرهم كان هناك : يوسـف بن صبيح وكان من كتاب المنصور وغسان بن عبيد الحميد وكان أيضا من كتاب المنصور ومثل : أبى عبيد الله معاوية بن عبد الله بـن يسار وكان من كتاب المهدى ومثله : محمد بن حجر كاتب ولاة أرمينـية والشـام ومحمد بن الليث وكان من الكتاب المفوهين وأنس بن أبى شيخ وكان يكتب لجعفر بن يحيى وقمامة بن أبى يزيد وكان من الكتاب المشهورين فى عهد الرشيد وعمر بن مهران كاتب الخـيزران أم الرشيد وموسى بن عيسى فى عهد الأمين والفضل بن سهل والحسن بن سهل وزيرا المأمون وأحمد ين يوسف وعمرو بن مسـعدة وطاهـر بـن الحسـين قائد المأمون ، وابن الزيات وزير المعتصـم والواثـق وإبراهيم ابن العباس الصولى ، ولعل وزيراً لم يبرع فى التوصيات براعة جعفر بن يحيى البرمكى .

***

الكتابة الأدبية :

هـــى الكـــتابة الفنـــية التى يقصد فيها إلى الإبداع فى التعبير والـــتأنق فـــى الأســـلوب والتنظيم فى الأفكار وترتيب النتائج على المقدمات .

وهذا النوع ليس جديداً على العربية ولكن حينما جاء العصر العباســـى تهـــيأت له أســـباب زادت فى رقيه وأدت به إلى درجات الكمال :

١- فقـــد اتســـعت رقعـــة الدولـــة وتشعبت نظمها السياسية والإدارية .

٢- علـــو مكانـــة الكاتب وسمو منزلته ورفعة شأنه وثقافته الواسعة .

٣- عظـــم مكانـــة فن الكتابة وعلو منزلتها لدرجة أن بعض الخلفاء كانوا يكتبون بأنفسهم أحياناً .

٤- كانت الكتابة من أهم مصادر الدخل فى العصر العباسى الأول بل كانت من أسباب الغنى والثراء لكتابها .

أنواعها :

١- الرسائل الديوانية .   ٢- الراسائل الإخوانية .

٣- الرسائل الأدبية .

٤- التوقيعات وهى كلمات قصيرة يكتبها الخليفة أو الوزير فـــى ذيـــل الشكوى أو استمناح أو أى موضوع يعرض عليه

ليبدى فيه رأيه ، وكانت موجزة بليغة مضيبة للهدف المرجو.

ومن أشهر الكتاب فى هذا العصر : ابن المقفع والجاحظ ـ وسهل بن هارون.وأحمد بن يوسف.وعمرو بن مسعدة.ومحمد بن عبد الملك الزيات .

مميزات الكتابة الأدبية :

١- اختيار الألفاظ الواضحة والبعد عن الألفاظ الغريبة .

٢- سهولة العبارات وتقطيع الجمل إلى فقرات فضلاً عن وجود ظاهرة التكرار والسجع والتزاوج بين الجمل مع انتقاء الألفاظ وجودة الرصف .

٣- عمق المعانى ودقتها وترتيبها وظهور الآثار المنطقية وأثر الثقافة الفارسية واليونانية وظهور المعانى الحضرية وعادات وتقاليد المجتمع العباسى بكل عناصره .

٤- اختراع المقدمات فى أول الرسالة المطولة وبعض العهود والمنشورات .

٥- تنوع عبارات البدء للرسائل كتحميدات متعددة لله تعالى وكمحاكاة لكتب النبى صلى الله عليه وسلم من مثل : " من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان .. سلام عليك أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأن الأمر كذا وكذا ...

٦- الغلو فى طرق الإيجاز والإطناب على حسب مقتضى المقام .

والخلاصـــة : أن الكتابة الأدبية بلغت فى هذا العصر غاية لم تتعداها المقادير بعد أن تتعداها .

ومن نماذج الكتابة ، كتاب أحمد بن[١] يوسف يهنئ بمولود :

أما بعد ، فليس من أمر يجعل الله لك فيه سروراً إلا كنت به بهجــاً أعــتد [٢] فــيه بالــنعمة من الله الذى أوجب علىَّ من حقك ، وعرفتــنى من جميل رأيك . فزادك الله خيرا ، وأدام إحسانه إليه ، وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سرياً [٣] أجمل صورته وأتم خلقه، وأحســن فيه البلاء [٤] عندك فاشتدَّ سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله علــيه ، فبارك الله فيه وجعله باراً تقياً يشدُّ عضدك [٥] ويكثر عَدَدَك ويقرُّ [٦] عينك ".

---

(١) أحمـــد بن يوسف كاتب دولة بنى العباس ويقال : إن أصل آبائه من قبط مصر وكانوا كتابا لبنى العباس فنشأ أحمد على الكتابة وكان من أبلغ الكتاب والشعراء واشتهر فى زمن المـــأمون ، وكان يميل إلى التوسع فى المعانى والأساليب والعبارات وجزالة الألفاظ مات سنة ٢١٣ هـ .

(٢) أعتد : أى أعد ذلك نعمة علىّ من الله.

(٣) سريًا : ظريفا .

(٤) البلاء : الاختبار .

(٥) العضد : ما بين المرفق إلى الكتف أى يكون قوة لك .

(٦) يقر عينك : تبرد سروراً.

وقـد شاعت فى العصر العباسى طريقتان فى النثر لكل منها خصائص تميزها عن غيرها :

أولاً : مذهـب ابـن المقفـع أو طـريقة ابن المقفع وتتميز بالخصائص الآتية :

١- الميل إلى السهولة والوضوح والبعد عن الألفاظ الغريبة .

٢- الاعتناء بالمعنى وترتيب الأفكار والإقلال من المحسنات البديعية والاعتماد على الترسل وعدم التقيد بالسجع .

٣- جـاءت عباراته بين الطول والقصر تبعا للموضوع الذى يكتبه .

ثانياً : مذهب الجاحظ أو طريقة الجاحظ :

١- عنايته بالناحية العقلية عناية كبيرة من استخدامه الأقيسة المنطقـية ووضع المقدمات واستخلاص النتائج وإعمال الفكر فـى كـل ما يعالجه ، والإسراف فى إبداء براعته المنطقية والاعتماد على البراهين العقلية والحسية ، واستخدامه طريقة الشك العلمى .

٢- وضوح ظاهرة الاستطراد فى كتاباته وذلك بخروجه من موضوع إلى موضوع ثم العودة إلى الموضوع السابق .

٣- كذلك من أهم ركائز مذهبه : الواقعية حيث يذكر الأشياء كما هى عليه وينقل الواقع فى عصره كما هو عليه .

٤- العنـاية بـاللفظ والمعنى معاً فى أسلوبه وسهولة الألفاظ وجزالة العبارات .

٥- تقطـيع الجمل الطويلة إلى جمل قصيرة بما يساعد على إبراز موسيقى الألفاظ .

٦- الاهتمام بالازدواج ومعادلة الألفاظ والجمل معادلة تضمن له النغمة الموسيقية .

٧- الإطناب بالترادف وتحليل المعنى والاستقصاء فيه وكثرة الجمل الاعتراضية والاعتماد على التكرار أحياناً .

ومن نماذج الكتابة عند الجاحظ [١]:

مـا كتـبه مـن رسـالة التربـيع والتدوير حيث كتبها لأحد معاصرية وهو : أحمد بن عبد الوهاب وكان يكيد للجاحظ ويحسده ، فكتـبها إليه يسخر منه فى شكل صورة هزلية ويقول فيها" كان أحمد بـن عـبد الوهاب مفرط القصر ، ويدّعى أنه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرته [٢] ، واستفاضة خاصرته مَدوَّراً ، وكان جعْد [٣]الأطراف قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدَّعى السَّباطة [٤]،

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ولقب بالجاحظ لجحوظ عينيه وقد ولد بالبصـرة عـام ١٥٩ هـ ونشأ بها وله مؤلفات كثيرة وضُرب به المثل فى كثرة التأليف ومن مؤلفاته : البيان والتبيين والبخلاء وكتاب الحيوان وقد توفى عام ٢٥٥ هـ .

(٢) جفرته : كرشه واتساع جبينه .

(٣) جعد : معوج .

(٤) السباطة : الطول واللين .

والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أُخْمص[١] البطن ، معتدل القامة ، تام العظْم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قِصر عظم ســاقه يدَّعى أنه طويل الباد[٢] ، رفيع العماد ، عادِىُّ القامة ، عظيم الهامــة [٣]، قــد أعطى البسْطة فى الجسم ، والسعة فى العلم وكان كبير السنِّ ، مُتقادم الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدلُ الشباب ، حديث الميلاد ".

***

(١) أخمص : ضامر.

(٢) الباد : باطن الفخذ.

(٣) الهامة : الرأس .

الكتابة العلمية :

وهـــى الكـــتابة التى تكتب بأسلوب علمى خاص بالعلم الذى يـــؤدى بها حافلة باصطلاحات هذا العلم مراعى فيها الترتيب العقلى والقـــياس المـــنطقى وتحريـــر العبارة من الحشو ووضعها بطريقة تناســـب المتبدئيـــن أو المنتهيـــن ، وتسمى بالكتابة التأليفية أو كتابة التدوين أو كتابة التصنيف .

وقد عرف العصر العباس التدوين فى العلوم العربية والكونية فـــى شـــتى أنواعهمـــا منذ أوائل هذا العصر بجانب حركة الترجمة الواسعة التى شهدها العصر العباسى الأول ، فكان هذا العصر وبحق هو عصر التأليف والتدوين والكتابة العلمية كما كان عصر الترجمة وقـــد اســـتطاع العباسيون أن يطوعوا لغتهم الأدبية للتأليف والكتابة العلمية والترجمة بالأسلوب العلمى الذى لم يكن معروفا من قبل لأن العـــرب الســـابقين دونوا مآثرهم ومعارفهم وحياتهم فى الشعر حيث كـــان الشعر هو ديوان العرب وذلك بجانب الخطابة وبعض الكتابات الضيقة .

ولكـــن حيـــنما جاء العصر العباسى بحضارته وتقدمه العلمى والأدبى وثقافته المتعددة الجوانب والمظاهر راحوا يؤلفون ويدونون العلـــوم المخـــتلفة مـــن : فقه وتفسير وحديث وتاريخ وأدب وفلسفة ومنطق وغير ذلك من العلوم المختلفة .

وقـــد ساعدتهم فى ذلك لغتهم الواسعة حيث أدت كل ماطلبوه

مـــنها بأسلوبهم الجديد الذى نشأ فى عصرهم واستطاعوا أن يدونوا ويؤلفـــوا بهـــا علومهم ومعارفهم فى كل علم وفن بأسلوب بعيد عن الخـــيال والعاطفـــة ومشتركات الألفاظ وبأسلوب علميٍ دقيقٍ مرتبٍ منطقيٍ واضحٍ بعيدٍ عن المجازات والألفاظ الغامضة .

والأسلوب العلمى فى جوهره يخاطب العقل ويهتم بالمقدمات والنـــتائج والتركيب والتحليل وكشف الأفكار ووضوحها ، ومع ذلك فإن الأسلوب العلمى الذى كتبت به العلوم فى العصر العباسى الأول لـــم يكـــن بعيداً عن روعة الأسلوب العربى ولكن كان مخالفا لأســـلوب الشـــعر والكتابة الأدبية حيث يهدفان إلى الجمال والمتعة الفنـــية بينما كان الأسلوب العلمى يهدف إلى التأليف والتدوين مع أن بعض الأساليب العلمية كانت تشيع فيها الروح الأدبية فاللغة العربية لغة الأدب والبلاغة والبيان .

ومن أشهر الكتابات العلمية فى العصر العباسى الأول :"كتاب "طـــبقات فحول الشعراء" لابن سلام الحجى ، و"الأصمعيات" للأصمعى و"المفضليات" للمفضل الضبى ، "وتاريخ الطبرى" ، و"الكامل" للمبرد وكتب الجاحظ العديدة وغيرها الكثير والكثير .

ومـــن نمـــاذج الكتابة العلمية فى هذا العصر هذه القطعة من كتاب الخراج " لأبى يوسف [1] حيث قال : وأنا أرى أن تبعث قوماً

---

(1) هو : أبو يوسف القاضى يعقوب بن إبراهيم الأنصارى الكوفى أخذ الفقه عن الإمام أبى حنيفة وكان نابها مقدماً وضع كتاب الخراج للخليفة هارون الرشيد .

من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به فى البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ما أُمروا به ، وعلى ما وُظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصـــح أخـــذوا بمـــا استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدُّوه بعد العقوبة الموجبة والنِّكال ، حتى لا يتعدَّوا ما أمروا به وما عهد إليهم فـــيه ، فـــإنَّ كـــل ما عَمل به وإلى الخراج من الظلم والعسْف فإنما يحمل على أنه قد أمر به ، وقد أمر بغيره ، وإن أحلّلت بواحد منهم العقوبـــة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدّوا على أهل الخراج واجترءوا على ظلمهم وتعسّفهم وأخْذهم بما لا يجب عليهم.وإذا صحَّ عندك من العامل والوالى تعدٍّ بُظلم وعسف وخـــيانة لك فى رعيتك واحتجانُ شيىء من الفيئ أو خبث طعمته أو ســـوء سيرته فحرامٌ عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئاً من أمـــور رعيـــتك أو تشركه فى شيىء من أمرك بل عاقبه على ذلك عقوبـــة تـــردع غـــيره من أنْ يتعرض لمثل ما تعرض له . وإياك ودعوة المظلوم فإن دعوته مجابة ".

***

الخطابة :

ازدهـرت الخطابة فى العصر العباسى الأول وبقى لها شأنها أكثر من قرن من الزمان فى عمر هذه الدولة نظراً لقربها من انتهاء العصر الأموى الذى شهد ازدهاراً عظيماً فى فن الخطابة فى مختلف نواحيها واتجاهاتها ، وظلت الخطابة فى المائة الأولى من العصر العباسى على قوتها وازدهارها حتى أصابها الضعف والوهن .

ويرجع ذلك إلى أسباب مختلفة دعت إلى قوتها أولا ثم ضعفها ووهنها بعد ذلك .

أسباب قوة الخطابة فى العصر العباسى الأول :

أولاً : أن الخلفاء فى صدر الدولة كانت لهم الكلمة والسلطان والنفوذ ، وكانوا أولى الأمر والنهى فى الدولة ، وقد كانوا من بنى هاشم الذين اشتهروا بالفصاحة والبلاغة والبيان ، وقد كان الخلفاء العباسيون على درجة كبيرة من فصاحة القول وبلاغة اللسان وكانوا خطباء بارعين نهضوا بالخطابة وعملوا على تشجيعها بمختلف الرسائل .

فقد كان السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون خطباء مفوهين وبلغاء رائعين .

- وكان المهدى يستدعى هؤلاء الخطباء من الوعاظ حتى يستمع إليهم وكان الرشيد كذلك وكانا يستمعان إليهم حتى تسيل دموعهم خشية وخوفاً مما يقوله الوعاظ والخطباء ،

وهناك الكثير من هذه المواعظ والخطب في كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه ، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة .

فالخلفاء فى صدر الدولة العباسية قد اهتموا بالخطابة اهتماماً كبيراً وعملوا على ازدهارها وارتفاع شأنها ، بل إنهم كانوا أنفسهم خطباء مفوهين كما قدمنا .

ثانياً : حالة الدولة العباسية وما كانت تعيش فيه من فتن واضطرابات وثورات داخلية ، فكانت الحاجة تدعو إلى الطلب لفن الخطابة حيث يدافع فيها الخلفاء عن أنفسهم ويدعون الناس إلى تأييدهم ومؤازرتهم ووقوفهم بجانبهم ، ويقاومون خصومهم والثائرين عليهم . كما كان للخارجين عليهم - خاصة أهل الشيعة - الخطباء الكثيرون الذين يدافعون عن حق العلويين فى الخلافة ويدعون الناس إلى مناصراتهم ضد العباسيين . فالحالة السياسية التى كانت تعيشها الدولة كانت سبباً رئيساً وعاملا قوياً من عوامل ازدهار الخطابة وعلو شأنها فى العصر العباسى الأول .

ثالثاً : الثقافة العربية الواسعة بين طوائف الشعب العباسى فى ذلك العصر فقد كانت جمهرة الأمة فى صدر الدولة تعشق القول البليغ ويقيمها ويقعدها،وتفقه مرامى العبارات فكانوا من حالهم مشجعين على الخطابة .

أما الأسباب التى أدت إلى ضعفها بعد ذلك فتتمثل فى الآتى :

١- قعــود الخلفــاء عــن الخطابة وإنابة غيرهم منابهم فى الصـــلاة بالناس مما جعل الناس ينظرون إلى الخطابة نظرة هينة بل نظروا إلى الخطباء نفس هذه النظرة .

فحيــنما كـــان الخلفـــاء يتصدون للخطابة بأنفسهم كان الناس ينظرون إلى الخطيب والخطابة نظرة تعظيم واحترام وحينما تكاســل الخلفاء عن الخطابة واستهانوا بها تبعهم الشعب فى الاستهانة بالخطابة والخطباء .

٢- انتشــار العجــم بيــن أوساط الشعب وقد سادتهم العجمة والعصبية الجنسية بدلا من البلاغة وحسن الاستماع .

٣- هدوء الحالة السياسية وقلة الثورات والاضطرابات داخل الدولــة فقــد بنيت دعائم الدولة ، وكاد الخلفاء يقضون على الــثورات والخارجيــن علــيهم ، فذهبت بذلك أعظم دواعى الخطابة وقلت الحاجة إليها .

٤- الاهــتمام الكبــير بالكــتابة والكتاب ، حيث اهتم الخلفاء بالكــتابة وكــتابها اهــتماماً كبــيراً ، بيــنما أهملوا الخطابة والخطباء، فلم يعبأوا بهم ولم يهتموا بأمرهم كالكتاب .

موضوعات الخطابة في العصر العباسي :

وجدت في العصر العباسي الأول الخطابة السياسية والدينية والحفلية وفن المناظرة ، وكانت في مجملها تتضمن هذه الموضوعات :

١- الدعوة للخلافة العباسية : حيث راح الخطباء يدعون للخلفاء العباسيين بالخلافة في مواجهة أبناء عمومتهم العلويين ، وبيان مظالم الأمويين واعتسافهم ومارتكبوه في حق آل البيت .

٢- بيان سياسة العباسيين ، حيث راحوا يظهرون في خطبهم خطتهم السياسية في إقامة العدل وردع الظلم ، ومحاربة الخارجين والثائرين على الدولة .

٣- وعظ الشعب والأمة وتبصيرهم بأمور دينهم وهدايتهم في معرفة أمر ربهم ، وكان هذا الوعظ كثيراً ما يجري في خطب الخلفاء أنفسهم حيث كانوا يعدون أنفسهم قادة الأمة وهداتها إلى ربهم .

الخطباء :

بفضل ازدهار الخطابة في العصر العباسي الأول وتشجيع الخلفاء العباسيين لها وجد عدد عظيم من الخطباء في هذا العصر: فضلا عن ـ الخلفاء العباسيين : أمثال : السفاح والمنصور والمهدي

والرشـــيد والمـــأمون وغيرهم الكثير من خطباء الهاشميين : سواء كـــانوا عباسيين أم علويين فمن خطباء العباسيين : عبد الله بن على وسليمان بن جعفر ، وصالح بن على وابنه عبد الملك ، ومن خطباء العلوييـــن : النفس الزكية ، وأخوه إبراهيم وجعفر الصادق والعباس ابن الحسين وغيرهم .

كذلك وجد كثير من الخطباء الآخرين غير الهاشميين أمثال : خـــالد بن صفوان والفضل بن عبس وأبنه عبد الصمد ، وجعفر بن يحـــيى الـــبرمكى والفضـــل بـــن سهل وطاهر بن الحسين وغيرهم الكثـــيرون وكـــان الجـــاحظ خطيب المعتزلة وابن قتيبةُ خطيب أهل السنة فى القرن الثالث .

***

"من خطبة دواد بن على بعد بيعة أبى العباس السفاح "

قـــال : الحمــد لله ، شكراً شكرا شكرا ، الذى اهلك عدونا ، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

أيها الناس : الآن أقشعت [١] حنادس الدنيا وانكشف غطاؤها وأشـــرقت أرضها وسماؤها وطلعت الشمس من مطلعها وبزغ القمر مـــن مبزغه وأخذ القوس باريها وعاد السهم إلى منزعه [٢]. ورجع الحـــق إلـــى نصـــابه فـــى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم .

أيهـــا الناس : إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر ، لنكثر لجيـــنا [٣] ولاعقـــيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفـــة من ابتزازهم [٤] حقا ، والغضب لبنى عمنا وماكرثنا [٥] من أموركـــم ، وبهظـــنا[٦] من شئونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا [٧] ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم

---

(١) أقشعت : تفرقت وتبددت . والحنادس : جمع حندس وهى الظلمة .

(٢) المـــنزع : مكان النزوع والرمى . والمراد : عاد الأمر إلى أهله . أى عادت الخلافة لمستحقيها .

(٣) اللجين معناه : الفضة . والعقيان : الذهب .

(٤) ابتزازهم : ابتز الشىء . أخذه عنوه وقهرا وغلبة .

(٥) كرثنا : كرثه الأمر إذا اشتد عليه وصعب .

(٦) وبهظنا : بهظ الأمر : ثقل عليه .

(٧) ترمضنا : أرمضه الأمر : أوجعه وألمه .

بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم.

لكم ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تباً تاباً [١] لبني أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة والدّار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم [٢] وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد التي استلذوا بها تسربل الأوزار . وتجليب الآصار [٣] ، ومرحوا في أعنة المعاصي وركضوا [٤] في ميادين الغي جهلاً باستدراج الله ، وأمنوا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل ممزق فبعداً للقوم الظالمين ...... الخ .

---

(١) تباً تاباً لبني حرب : التب : الهلاك . وحرب : هو جد معاوية بن أبي سفيان ، وهو دعاء على الأمويين بالهلاك والخسران .

(٢) وغشوا الجرائم : أي باشروها وارتكبوها وفعلوها.

(٣) تجليب الأصار : أي لبس الذنوب والأوزار ، فالأصار معناها : الذنوب والآثام والأوزار.

(٤) ركضوا : الركض : العدو والمشي بسرعة .

الفهرس

والحمد لله أولاً وأخيراً